العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 57
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 9 من محرم 1448
الموافق 25 يونيو 2026
10، شارع زنقة المرج حسان الرباط
bachkarmohammed77@gmail.com

مع هذا العدد

دراسات وشهادات
في احتفالية تكريمية
كبرى بالمشروع النقدي
والأدبي للدكتور حسن
المودن بجامعة القاضي
عياض في مراكش

مَكائد في ثلاثِ قصائد

ثلاثية في الضباب.. بريشة الرسام الأمريكي جوشوا كوفي

محمد بشكار

خطأ اقْترفَتْنِي الْحيَاةْ

صَحِّحيني إذَا
الكَسْرُ قَدْ شَجَّ في
عَظْمِ جُمْجُمَتي كُلَّ
مَعْنَى
إذَا زَغْتُ
عَنْ ضَمَّة
انْتَظَرَتْني مَدَى
الْعُمْرِ في آخِرِ
السَّطْرِ أوْ
حَذَفَتْني الْعَشيقَةُ
مِنْ مُعْجَمِ الْقَلْبِ حِينَ
الْتَقَتْ سَاكِنَيْنْ

لا أُريدُ لغَمْزِ
السُّكُون
الأثيمِ علَى
رَمْشِ حَرْفٍ يُحِيكُ
السَّرَابْ،
أنْ يُسَاوِرَني بِهوًى
في الْبَلاغَةِ يُفْسِدُ
ذَوْقَ الْكِتَابْ

صَحِّحيني أنَا
خَطأً
اقْتَرَفَتْهُ الحيَاةْ
لا أفيدُكِ في جُمْلَةٍ حِينَ
أقْفِزُ بَيْنَ سَمَاءٍ
وأُخْرَى انْزِيَاحًا،
وَتَسْبِقُني للثُّمالَةِ مِلْءَ
الْمَحَابِرِ كُلُّ
الْعِبارَاتِ حتَّى تَفيضَ
جِرَاحًا

صَحِّحيني عَلَى
أيِّ نَحْوٍ
أنَا
خَطأً
اقْتَرَفَتْهُ الحيَاةْ

المَرْجِعُ ذيلْ..

مَرْجِعُ
الكلْبِ ذَيْلُهُ
مَنْ قَالَ لا يَسْتَقيمُ
بِلَيِّهِ تأوِيلٌ
ولا ضَيْرَ
إنْ عُلَماءُ البَلاغَةِ
قَدْ اسْتَنَدُوا حينَ فَكِّ
نُيُوبِ نُبَاحِهِ للُّغَةِ
الأعْجَمِيَّةِ، فَالْحُجَّةُ
الْمُسْتَتِرَةُ تَحْتَ الضَّمائرِ
تَحْتَاجُ تَعْليلَ
تُرَاني فَتَقَتُّ

الوُرُودُ التي تورَّدَتْ أعْلاهُ..

الوُرُودُ
التي وَرَدَتْ في
القَصيدَةِ مِنْ دُونِ
أسْمَائِهَا
لَمْ تَجِدْ بَصْمَةً
غَيْرَ ساقِ الفَرَاشَةِ تَرْسُمُ
لَوْنَ هُوِيَّتِهَا

لمْ تجِدْ في تَجَاعِيدِ
يَوْمِيَّاتي الّتي جَفَّفَ
الوَقْتُ أوْرَاقَهَا الخُضْرَ
غَيْرَ
عِبَارَاتِ:
أنَّى

وأيَّانَ
حتى
مَتَى
وإذَا..
لتُهَرِّبَ أعْمَارَنَا
في كلامٍ لفَرْطِ صَقيعِهِ
شَاخَ المَدَى

لَمْ تَجِدْ
في مَعَاجِمِ ثَوْبِكِ
ذاكِرَةً بِحَوَاسِّ
الشَّذَى
كَيْ تُعيدَ الفُصُولَ
إلى رُشْدِهَا..؟

القَصيدَةَ وهْيَ الّتي
أرْضَعَتْني مِنْ ثَدْيِهَا
دُونَ إحْلِيل..؟

مقاربات في المنجز العلمي عند الدكتور عبد الجواد السقاط

ضمن سلسلة «رياض الأدب»، رأى النور أخيرا كتاب جماعي جديد، وقد اختير له عنوان «مقاربات في المنجز العلمي عند د. عبد الجواد السقاط»، وهو من تنسيق الدكتور عبد الجواد السقاط، وقد شارك في هذا الكتاب الصادر عن مكتبة كوبي ليلى بالرباط، ثلة من الأساتذة هم:

دة. نجاة المريني، د. مصطفى يعلى، د. محمد احميدة، د. محمد خيوط، د. عادل القريب، د. محمد بنمبارك.

ومعلوم أن سلسلة رياض الأدب تكتنف ورقات توثيقية لجلسات أدبية أبت همة زمرة من الأساتذة الباحثين إلا أن يفتحوها نوافذ تطل على المجهودات السخية التي ما فتئوا يبذلونها خدمة للغة والثقافة العربيين، وللأدب المغربي، انطلاقا مما تجود به اهتماماتهم من إصدارات تتناول جوانب متعددة من محاور هذا الأدب، بدءا من التنقيب عن نصوصه الغميسة في بطون المخطوطات والمضان القابعة في زوايا من المكتبات العامة والخاصة، مرورا بتحقيقها تحقيقا علميا، ووصولا في الأخير إلى مرحلة الدراسة والنقد، متجشمين بعد ذلك معاناة النشر، ومحاولين التغلب على معوقاته وعراقيله التي لا تخفى عن أهل الميدان.

ويأتي هذا العدد الأول من هذه السلسلة، والذي ينشر اليوم، خاصا بوقائع الجلسة الأولى المنظمة بتاريخ 25 نونبر 2025، التي تمحورت حول المنجز العلمي للأديب والباحث المغربي الدكتور عبد الجواد السقاط»، بحضور ثلة من صفوة المثقفين بالمعنى الواسع للثقافة، سواء منهم من ينتمي إلى السلك الدبلوماسي والقنصلي، أو سلك القضاء، أو التربية، أو الفن، أو الإدارة، أو الإعلام، أو القطاع الخاص.

وكان قد أدار هذه الجلسة الأستاذ الأكاديمي الدكتور محمد احميدة، بما يتميز به تسييره كالمعتاد من حكمة ولباقة.

يقع هذا المؤلف 146 صفحة من الحجم المتوسط.

تقديم وتحقيق: سليمان القرشي

رحلة القاصدين ورغبة الزائرين

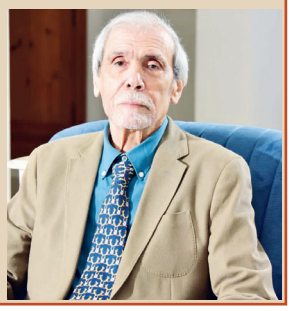

كتابٌ جديد صدر أخيرا عن مكتبة دار الأمان بالرباط (2026)، ويندرجُ هذا المؤلف ضمن أدب الرحلة، ويحمل عنوان «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين» للرحالة المغربي عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي (1142هـ/1728م).

قام بتحقيق الكتاب الدكتور سليمان القرشي الباحث في الأدب المغربي، الذي تكرّس اسمه خاصة في مجال أدب الرحلة، الذي أغناه بعدد من الدراسات والتحقيقات، لعل أهمها رحلة ماء الموائد لعبد الله العياشي ورحلة من المغرب إلى الحجاز عبر أوربا لمحمد الغيغائي اللتيْن نال بهما جائزة ابن بطوطة التي يرعاها مركز ارتياد الآفاق بدولة الإمارات العربية المتحدة.

يمثّل الكتاب الجديد للباحث سليمان القرشي «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين» إضافة نوعية للرحلات الحجازية كما ترسخت في أدبيات الرحلة إلى بيت الله الحرام مشرقا ومغربا؛ وذلك بانبائها على المرتكز الديني من خلال احتفائها بالبيت الحرام اعتبارا لرمزيته الكبرى وقدسيته في العقيدة الإسلامية، كما أن الكتاب المذكور يغني سجلات الرحلة ضمن نسيج الثقافة المغربية من خلال ما تحصّل لدى الغنامي المزمزي في هذه الرحلة من مشاهدات ومطالعات ولقاءات، وما أفاده من البركات وصالح الدعوات بزيارة المشايخ والأولياء والصالحين؛ جامعًا بذلك بين الحج الشرعي الشعائري والحج العُرفيّ.

احتفى الغنامي في رحلة القاصدين –كغيرها من الرحلات- بوصف الأمكنة وتسجيل ما تثيره من انفعالات لديه متراوحة بين التفاعل والحياد. إضافة إلى وصفه الآخر باعتباره غير الأنا، المخالف له في الملة والعقيدة والمذهب.

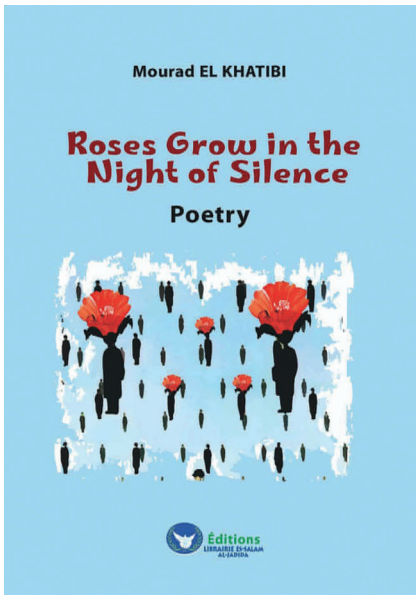

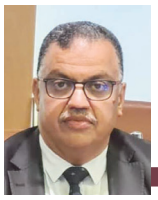

اعتبارا لكل ذلك، يمثل تحقيق الدكتور سليمان القرشي لهذه الرحلة، وصدورها حدثا أدبيا وثقافيا جديرا بالانتباه، وإضافة مهمة لسجل الرحلات المغربية إلى بيت الله الحرام التي تتجاوز بعدها الديني أو الشعائري لتكشف لنا عن المنظومة الدينية للإنسان المغربي وطبيعة العلاقات بين المشرق والمغربي وصورة كل واحد منهما عن الآخر خلال القرن 18 الميلادي.

عبد الفتاح كيليطو كاتبا باللغة العربية في ملحق العلم الثقافي

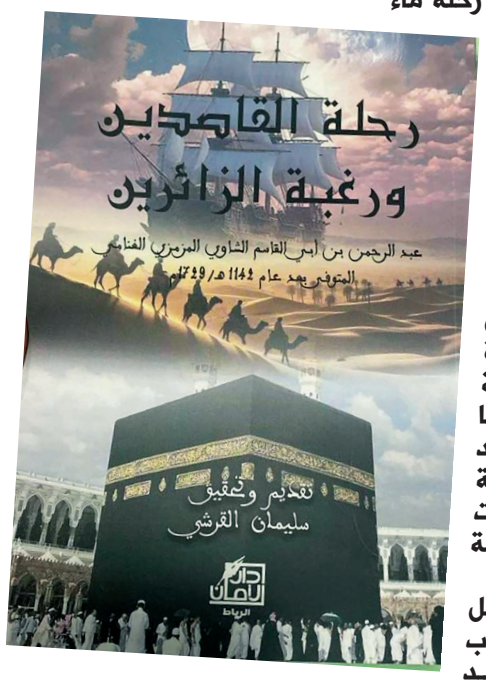

توصلنا أخيرا من المترجم والشاعر إسماعيل أزيات، بمقال بديع موسوم بـ « من غير أمّ ولا أب»، لكاتبه الأديب المغربي عبد الفتاح كيليطو، وقد أبى هذا المقال الذي نشرناه في الأسبوع الماضي بملحق «العلم الثقافي»، إلا أن يحمل إلى جانب توقيع كاتبه، اسم مرسله إسماعيل أزيات، معتقدين أنه مقال مترجم من طرفه، خصوصا أنه دأب منذ سنوات على ترجمة أعمال كيليطو ونشرها بالملحق، والحقيقة أن مؤلف «الأدب والغرابة»، آثر هذه المرة أن يمد ملحق «العلم الثقافي» بفلذة من كتاباته ذات الماء والرواء باللغة العربية، فمعذرة للقراء الكرام ولأديبنا القدير عبد الفتاح كيليو، ومرحى بإسماعيل أزيات.

مراد الخطيبي

الورود تنمو في ليل الصمت

اختار الشاعر المغربي مراد الخطيبي اللغة الإنجليزية لنشر مجموعته الشعرية الجديدة، وقد صدرت هذه المجموعة، التي تحمل عنوان Roses Grow in the Night of Silence « الورود تنمو في ليل الصمت»، عن منشورات مكتبة السلام الجديدة بالدار البيضاء. تضم المجموعة أربعاً وعشرين قصيدة.

يمكن وصف هذه المجموعة بأنها احتفاء باللغة، باعتبارها عنصرًا أساسيًا للإبداع وشكلًا من أشكال التسامي؛ تسامي الواقع بكل تعقيداته. كما تعكس رؤية الشاعر لنفسه وللكون من حوله. علاوة على ذلك، فهي تجسد التزامه الفلسفي والشفاف بالقضايا والقيم الإنسانية. وقد سبق لمراد الخطيبي أن نشر خمس مجموعات شعرية باللغة العربية، بالإضافة إلى العديد من الأعمال باللغتين العربية والإنجليزية. كما ترجم أكثر من خمس مجموعات شعرية من العربية إلى الإنجليزية.

دراسات وشهادات في احتفالية تكريمية كبرى بالمشروع النقدي والأدبي للدكتور حسن المودن بجامعة القاضي عياض في مراكش

الناقد المغربي حسن المودن رائد من رواد النقد النفسي والتحليل البلاغي

لم يخلف أسبوع البحث العلمي الذي دأبت جامعة القاضي عياض بمراكش، موعده مع ثقافة الإعتراف والوفاء، تقديرا للكفاءات العلمية المحلية في مجال البحث الأكاديمي والبيداغوجي، هذه الثقافة الأثيرة التي تزدان بحليتها مجالس العلوم والآداب والمعرفة عموما، اختارت أن تضع في هالة الضوء هذه المرة، الأستاذ الدكتور حسن المودن احتفاء بمشروعه النقدي والأدبي.

الاحتفالية التكريمية التي احتضنتها مدينة اللغات والثقافات بكلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، امتدت من 17 إلى 25 أبريل المنصرم، وكانت تحت شعار «من المعرفة الأكاديمية إلى التأثير الترابي»، وقد أقامت بشراكة مع مختبر تكامل المناهج في تحليل الخطاب يوم السبت 18 أبريل 2026، لقاء علميا متميزا في موضوع: «في التحليل النصي ورشات وقراءات»، حيث التأم في اللقاء حول الأعمال الأدبية للناقد حسن المودن، ثلة من الأساتذة الباحثين وطلبة الماستر والدكتوراه في محفل علمي تنوعت فقراته بين الورشات التكوينية، والمداخلات النقدية، وشهادات تكريمية تجسد روح الترابط والوفاء بين الأستاذ والطالب.

وقد انطلقت فعاليات اللقاء بجلسة افتتاحية أدارها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن إكيدر، الذي أشار إلى الأبعاد العلمية والبيداغوجية والإنسانية التي جاء في سياقها هذا التكريم. أما كلمة السيد عميد كلية اللغة العربية بمراكش الأستاذ الدكتور أحمد قادم، فقد أكد فيها على الدور الريادي للمحتفى به في تطوير الدراسات التحليلية للنصوص الأدبية والنقدية بالجامعة المغربية، حيث اعتبر حسن المودن رائدا من رواد النقد النفسي والتحليل البلاغي، كما أشار إلى أفضال المُحتفى به على كلية اللغة العربية وطلبتها، وذلك ما يتجلى من خلال محاضرات قدمها في وحدات مختلفة لطلبة الماستر خلال سنوات طويلة.

بينما اتجهت كلمة مدير مختبر «تكامل المناهج في تحليل الخطاب» الأستاذ الدكتور سعيد العوادي، إلى إبراز القيمة المنهجية التي أضافها الدكتور المودن للدرس البلاغي وللمشهد النقدي المعاصر، وأشار إلى أن الاحتفاء بجهوده هو احتفاء بالبحث العلمي الجاد والرصين، وبالتدريس والتكوين في أرفع مستوياته. وفي آخر هذه الجلسة الافتتاحية جاءت كلمة المحتفى به الدكتور حسن المودن: الذي عبر عن شكره وامتنانه لكل من كان وراء هذه الالتفاتة العلمية، مشددا على دور مثل هذه الالتفاتات في استمرارية البحث العلمي في مساحات مهمة من الدرس النقدي المعاصر، وتجديد الأسئلة النقدية، والعمل مع الطلبة والباحثين. مؤكدا على ضرورة خلق حوار نقدي بين المناهج والمقاربات المختلفة، ومقترحا ما يَصطلح عليه بالنقد التعددي؛ الذي يرى أنه يمكن أن يكون مفتاحا مناسبا لسبر أغوار النصوص في مختلف أبعادها.

ثم بعد ذلك اتجه الطلبة والباحثون إلى الجلسة التكوينية في موضوع «التحليل النصي»، أُعقبتها جلسة علمية أخرى قدم فيها المتدخلون قراءات في أعمال الدكتور حسن المودن؛ وذلك بمشاركة الدكاترة: محمد زهير، عبد العزيز لحويدق، ميلود عرنيبة، عبد الحي الطالبي.

بينما خُصصت الجلسة الأخيرة لتكريم المحتفى به، والتي أدارها الدكتور عبد الفتاح شهيد، حيث قدم مجموعة من الأساتذة والطلبة كلماتهم في أستاذهم، وذلك بمشاركة: د. رضوان الكعبة، خديجة آيت مولاي، محمد فرتان، بوبكر واسلام، أحمد أيت علي وبيهي.

ثم اختتم اللقاء بكلمة الأستاذ الدكتور حسن المودن، الذي جدد شكره للمنظمين وللأساتذة المشاركين في هذا اللقاء بمختلف فعالياته. كما جدد الشكر لكلية اللغة العربية وعميدها الدكتور أحمد قادم، على كل ما يقدمه لهذه الكلية وللبحث العلمي في جامعة القاضي عياض.

إعداد وتنسيق: د. عبد الفتاح شهيد
ود. عبد الرحمان إكيدر وذ. عبد العاطي السطوري

الناقد حسن المودن والتحليل النفسي

تخصص باحث وأصالة مشروع

د. ميلود عرنيبة
الكلية متعددة التخصصات بأسفي

عندما يُذكر النقد النفسي العربي الحديث يتبادر إلى الذهن اسم يشكل علامة في هذا التوجه من النقد هو الناقد حسن المودن؛ هذا الناقد الذي اختار التخصص في ميدان قلّ فيه المنافسون وتنكبوا عنه؛ لأنه ليس بالعرض القريب، ولا الطريق السالك اليسير، وإنما هو ميدان يحتاج الخوض فيه دقة وتقصيا وبحثا حثيثا وصبرا ومثابرة.

لقد تحققت في الناقد حسن المودن فراسة ناقد مغربي حصيف يشكل أحد أعلام المشهد النقدي المغربي المعاصر هو نجيب العوفي الذي قال عنه في سنة 2013: «حين وفد اسم حسن المودن إلى المشهد الأدبي والنقد منذ قرابة عقدين من الزمان، راهنا منذ البداية على كتاباته وأبحاثه، وكان الرهان على جواد رابح»1، ولقد كان كما قال.

فقد كرّس المودن جلّ جهده للتحليل النفسي والنصي للأدب، فخدم هذا الميدان ولا يزال يخدمه، مؤمنا بجدوى هذه المناولة التي يتبناها ويدافع عنها تنظيرا وتطبيقا، وربما يعدّ المنهج النفسي من أوفر مناهج النقد الحديث حظا؛ لأنه وجد من يؤمن بفائدته في تحليل الأدب ويعمل على تجديده وبعث الروح فيه عند الغربيين وعند العرب، ولعله، إلى جانب المنهج الاجتماعي، «يشكلان المنهجين الوحيدين الغنيين للدراسة العلمية المجدية في طريق ليس بعلمي بحث»2، كما يرى الناقدان كارلوني وفيلو.

عمل المودن على الإسهام في تعميق مقولات التحليل النفسي وتجديدها وتطويرها، فاختط لنفسه منهجا خاصا بلوره عمليا من خلال تعاطيه بشجاعة مع نصوص مختلفة، وهذا المنهج أطلق عليه «التحليل النصي» الذي يجمع بين ما هو نفسي/ إنساني من جهة، وبين ما هو أدبي/نصي من جهة أخرى. فكان بذلك صاحب حسّ اجتهادي، وسعي دائم إلى إغناء الممارسة التحليلية النفسية للأدب؛ مما جعله محط تقدير في الساحة النقدية؛ فهذا أستاذه محمد برادة يصفه بـ«الباحث المجتهد»3، وذاك سعيد يقطين يخلع عليه ثلاث خلال: «الجدية والرصانة والذكاء»4؛ وهي خلال إذا اجتمعت في شخص مكنته من أن يحظى بمكانة خاصة في المشهد الثقافي، وجعلت أعماله موضع تقدير ومدار اهتمام وعناية من قبل الدارسين؛ لا سيما وأنه اختار تخصصا دقيقا وصعبا، فكان فيه «وحده يصول ويجول دون أن ينافسه أو يؤنسه أحد في ركوب غوارب بحره»5، كما يسجل الناقد محمد الداهي.

والمتابع للمشروع النقدي لحسن المودن يجده مشروعا مؤسّسا مبنيا على التدرج والتراكم؛ يتأسس فيه السابق على اللاحق؛ لا يكرر وإنما يطور ويضيف، وانطلاقا من متابعتي المتواضعة لهذا المشروع، ودون أن أزعم أنني أحطت بكل جوانبه، خلصت إلى رصد أبرز خصائصه العامة وسماته المميزة، وهي في اعتقادي خمسة أساس:

1- التخصص الدقيق؛
2- التحليل النصي والانحياز للنص؛
3- الأصالة: محاولة استنبات المنهج في الثقافة العربية؛
4- الشجاعة الاقتراحية؛
5- أنسنة النقد.

وكل خاصية من هذه الخصائص تحتاج دراستها دراسة مستوفية وتحليلية بحثا خاصا؛ لذلك سأقتصر على عرض موجز لها يتماشى مع سياق هذا البحث.

1 - التخصص الدقيق

من السهل أن يكتب المرء في مجال متشعب يجد فيه متسعا للمناورة من مشارب شتى؛ لكن من الصعب أن يحصر نفسه في مجال ضُيق وصعب، قد ينعته بعض ممن قصرت هممهم بالمجال «الذي قُتل بحثا»، وغايته أن يعرف الكثير عن القليل، ومما لا شك فيه أن اختيار هذا الطريق يتطلب من صاحبه مشقة البحث وكدّ الاستقصاء، وكثرة القراءة، وطول معاشرة الكتب، وملازمة التنقيب. ولقد كان هذا ديدن الناقد حسن المودن؛ فقد آثر مشقة البحث في مجال معقد شغف به حتى صار يتنفس هواءه حيثما حل وارتحل، يطارد فيه كل جديد عند الغربيين في حينه، يقصّ مفهوماته في مظانها، ويتعقب مستجداته في أصولها ثم ينقلها إلى تربة الثقافة العربية يستنبتها فيها ويقربها من القارئ العربي، غير مقتصر على النقل، ولكنه يعمل جاهدا على المشاركة في إغناء هذا المجال، ولا يزال كذلك حتى صارت أخبارُه آثارَه، وحصل له بذلك حميد الذكر، بما أغنى به مجال البحث والنشر.

إن هذه الإقامة الدائمة في بيت التحليل النفسي تكشف عن إيمان المودن بضرورة التخصص النقدي حتى يكون البحث منتجا، والحصيلة مقنعة، والنتائج مفيدة؛ لذلك اختار «أن يمتطي مركب النقد الوعر»6؛ فشمّر له واستفرغ فيه الجهد، وظل يحفر فيه، ويتتبع هوامشه وظلاله التي أهملها مؤسّس التحليل النفسي فرويد، مما جعل يقطين يطلق على توجهه هذا «التخصص المحدد»7، فصار المودن في مجال النقد العربي معروفا بالتحليل النفسي، والتحليل النفسي يعرف به؛ «كلاهما مغرم يهذي بصاحبه»8.

وهذا التخصص الدقيق هو نتيجة للصبر في محراب القراءة، والمودن، كما عرفته قبل أن يصيبه المرض، رجل قارئ يقضي جل وقته في مكتبه، مختليا بكتبه، يقرأ ويكتب، ولعل مما ساعده في هذا التخصص قراءته بلغات أخرى، ولا سيما الفرنسية. ومن الملاحظ أنه لا يهتم بكثرة الإنتاج في هذا المجال بقدر ما يعتني بنوعية ما ينتج، بعيدا عن التكرار والاجترار. ويشهد لخاصية التخصص هذه إنتاج المودن الذي لا يكاد كتاب منه يخرج عن التحليل النفسي، وعناوين كتبه شاهدة:

- جان بيلمان: التحليل النفسي والأدب، ترجمة (1997)؛
- لاوعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي (2002)؛
- الرواية العربية قراءات من منظور التحليل النفسي (2007)؛
- الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي (2009)؛
- القصة القصيرة والتحليل النفسي (د.ت)؛
- الرواية العربية من الرواية العائلية إلى محكي الانتساب العائلي قراءات نقدية من منظور التحليل النفسي (2017)؛
- الأدب والتحليل النفسي (2019)؛
- الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقاربة نفسية جديدة (2024)؛
- لاوعي الرواية، لاوعي القارئ الرواية العربية والتحليل النفسي (2026).

ناهيك عن عدد من المقالات في المجال نفسه.

2- التحليل النصي والانحياز للنص

عرف النقد العربي منذ بداية العقدين الأخيرين من القرن العشرين تحولات مهمة، كان وراءها انفتاحه على نظيره الغربي بما حقق بفتوحاته العلمية من نتائج على المستويين النظري والتطبيقي؛ ذلك أن النقاد العرب سارعوا إلى النهل من النقد الغربي والاستمداد لبعض مقولاته ومناهجه. ومن أبرز الإشكالات التي يطرحه التعاطي مع مناهج النقد تلك المتعلقة بمدى قدرةِ المنهج على وضع اليدِ

على «حقيقة» النصِّ والإمساك بجميع عناصره، وتفجير كل مكنوناته، وبلوغ المرام في فهمه وتأويله من جهة، ومن جهة أخرى بمدى قابلية النصِ واستجابته لإجراءات وخطوات المنهج الموظف في مقاربته.

ولقد وقع بعض مطبقي المناهج في التعسف على النصوص فوضعوها على سرير بروكست حتى تستجيبَ لإجراءات وخطواتِ هذا المنهج أو ذاك؛ فكانت النتيجة انتصارا للمنهج وترجيحا لكفّته على حساب كفة النص الذي أصبح مجرّد وسيلة للبرهنة على جدوى المنهج وفعاليتِه. فضاعتْ خصوصية النصوص ومعانيها وتمّت التضحية بكثير من عناصرِها. لذلك نبّه «نقد النقد» إلى الخطر المتزايد للنقد الذي قد يظهر في إفقاره العمل الأدبي، وتضخيم ذاته، والوصول إلى «حد يصبح فيه مكتفيا بذاته، ويصبح العمل الأدبي مجرد ذريعة»9.

في هذا السياق أدرك المودن أن مناولة تطبيق التحليل النفسي على الأدب انتهت إلى تمرين آلي وصل البابَ المسدود؛ وممارسة محدودة ومحدّدة لتأويل خاص، ونقد جزئي استنفد كلّ إمكاناته، فيه كثير من التعسّف. فأوشك المنهجُ على الإفلاس، وصار عاجزا عن إضاءة العمل الأدبي. فكان لا بدّ من التفكير في تجديد هذا المنهج، وإعادة النظر في دور المحلّل النفسيّ بمنح الفرصة للعمل الأدبي المقروء من أجل أن يحاورَه، وأن يسائل معرفتَه النفسانية؛ «ذلك لأنّ الأدبَ هو الذي يمكنه، على حدّ تعبير جان لاكان، أن يرسل هواء جديدا إلى التحليل النفسي»10، هواءً ينعشه ويجدّد الدورة الدموية في جسمه بعدما أوشك على الموتِ.

آمن المودن بسلطة النّص وسيادتِه فانحاز له، واختار منهج «التحليل النصي» الذي يمهّد الطريق أمام النص الأدبي ليصبحَ هو بؤرة التحليل وقطبَ رحاه بالدرجة الأولى، من غير «إقصاء كليّ للكاتب أو القارئ أو السياق»11. فالنصّ في تصوره يستطيع، بما ينطوي عليه من محمولات لاواعية، أن يوسّع من آفاق القراءةِ والتأويل، ويفتحَ مسارب لإضاءة النفس البشرية وكشف أسرارها التي لا تتكشّف من خلال سلوكها في الواقع الذي تخفي فيه أكثر مما تظهر بسبب قيودٍ عديدة، بعدّ النص «مجالا لإبلاغ صوت الكينونة المتكلمة خارجَ أسيجة الواقع والمقتضيات الاجتماعية»12، على حدّ تعبير النّاقد محمّد برادة. وآمن بفاعلية منهج التحليل النصي منذ بحثه لنيل دبلوم الدراسات العليا في 1996؛ إذ يقول: «ونفترض أن المنهج النفسي الذي يهتم بلاوعي النص (التحليل النصي) هو المؤهل لتأسيس مقاربة يكون موضوعها هو الكتابة لا الكاتب، لأنه ينظر إلى الكتابة في حركيتها وتكوينها وانشغالها، مركزا اهتمامه على جسد النّص الأدبي وبنياته النصية والجمالية، محاولا فهم «الكيفية التي يتخلل بها اللاوعي هذه البنيات»13، ويعد هذا المنهج أكثر فعالية في تأسيس معرفة بالأدبي والجمالي.

هذا الإيمان بالنص قاد المودن لأن يشتغل بنصوص عديدة يصعب عدها موزعة على جغرافيا العالم العربي من مشرقه إلى مغربه، فقدم قراءات نفسانية في أعمال قديمة وحديثة تنتمي إلى أجناس مختلفة؛ دينية وتاريخية وأدبية وأسطورية، منطلقا من افتراض يكاد يصبح عنده قناعة هو قدرة النصوص باستمرار على إغناء مفهوماتنا وتصوراتنا وأسئلتنا النقدية والنفسانية؛ «فلم يعد مقنعا أن يخضع الأدب لمسلمات التحليل النفسي وتمريناته التي أصابها الجمود والإفلاس، من دون أن يكون له الحق في الكلام، أو في الاعتراض، أو في المساهمة في بناء تصورات نفسانية جديدة للإنسان ولغته وأدبه»14. فالأدب لا التحليل النفسي هو المصدر الأساس للتنظيرات والتصورات النفسانية، ومن الممكن أن تكون هناك، في الأعمال الأدبية، اقتراحات أخرى غير التي اقترحها فرويد15.

هذا التحليل النصي يردم الهوة ويرأب الصدع بين التخييل والتنظير، فيُخرج النقدَ من صرامته وجديته التي تكاد تُفقده حيويّته وتعرضه للمقت من قبل القراء، يكاد يكون نوعا مما يسميه المودن «التخييل النظري» الذي لم يعد يؤمن بذلك الانفصال التام بين التحقيق والتخييل، بين المحكي والنظري، بين ما هو تحليل يُفترض أنه من صنع العلم، وما هو أدبي يُفترض أنه من صنع الخيال؛ ولم يعد يقبل بذلك الانفصال بين الواقع والخيال»16، لقد أصبح النقد نصا له جمالياته، وله سحره، وله نصيبه من التخييل، أشبه ما يكون بإعادة كتابة للنص المنقود. يقول في مقدمة كتابه «الرواية العربية قراءات من منظور التحليل النفسي، 2007»: «تتقدم هذه المحاولات في شكل قراءات مفتوحة، فالمنهج الذي يسندها ليس منهجا متقنا ومحكما وصارما، بل إنه بالأساس فتح فضاء حوار حر بين النص والقارئ. وبهذا المعنى فالنص هو الذي يفرض منهج قراءته وزاوية مقاربته، بالطريقة التي تجعل المنهج يبدو كأنه لا يطلب الاستقرار، ويقوم في كل مرة يفتح الطريق أمام احتمالات جديدة، ويتقدم بعيدا عن المعيارية والإسقاط والتعسف، وقريبا من النص الأدبي بالشكل الذي يجعل التخييل عنصرا مشتركا بين الكتابة والقراءة، ويسمح للقراءة بأن تكون تورطا للذات القارئة داخل عوالم النص الأدبي، كما يسمح للنص بأن يساهم في توليد وتوسيع امتدادات الخطاب الأدبي»17.

وإذ يقترح علينا المودن التحليل النصي فإنّه يضع بين أيدينا مناولتين؛ لكل مناولة أسئلتها18 الخاصة:

الأولى تمزج بين المقاربة الموضوعاتية والمقاربة النفسانية، وأسئلتها الأساس هي: ماذا يكتب الروائي؟ ما هي الموضوعات الأكثر إلحاحا وحضورا؟ ماذا يعني أن يكتبَ الإنسان؟ ماذا يشكل فعلُ الكتابة بالنسبة إلى الإنسان؟ ما حاجةُ الإنسان إلى هذه اللغةِ الأخرى التي نسميها الأدبَ؟ ما هي الحوافز التي تدفعُه إلى ممارسة الكتابة؟

والأخرى تمزج بين المقاربةِ الأسلوبية والمقاربة النفسانية، منطلقة من الأسئلة الآتية: كيف يقول النص ما يقوله عن الإنسان؟ ما هي الأساليب والتقنياتُ السردية التي يستخدمُها النص الأدبي، والروائي بالأخصّ، من أجل قراءة الإنسان في واقعه النفسي؟ كيفَ تمارس الكتابة الأدبية، والروائية خاصة، تحليلها النفسي للشخصيات الروائية؟

يبدو أن هذه المقاربة المزدوجة تقارب العمل مقاربة تكاملية؛ تغطي شقيه الشكلي والمضموني.

3- الأصالة: محاولة استنبات المنهج في الثقافة العربية

يكشف المودن في العديد من دراساته وأعماله عن وعي بالخصوصية الثقافية؛ لذلك وجدناه يتنكب عن إسقاط المفاهيم النفسانية الغربية على النصوص العربية وعيا منه باختلاف الثقافتين وتباينهما، فلجأ إلى قلب الاتجاه؛ وانطلق من النصوص مراعيا سياقاتها العربية التي أنتجتها. يبدو هذا الوعي جليا من خلال أحد تساؤلاته الذي جاء فيه: «إذا كان المعلم الأول والمعلم الثاني في التحليل النفسي قد استمدا مفهومات نفسانية أساسية من المحكي اليهودي والمسيحي، ألا يمكن أن نستمد مفهومات جديدة من المحكي الديني الإسلامي؟ وبدل أن نطبق التحليل النفسي على النص القرآني، وأن نسقط عليه تأويلات قد لا تلائمه، أليس من الممكن أن نطبق المحكي القرآني على التحليل النفسي، فنستمد منه بعض المفهومات أو التصورات النفسانية التي تسهم في تطوير التحليل النفسي المعاصر؟ ألا يمكن للمحكيات القرآنية أن تساعد المحلل القارئ على استيلاد مفهومات نفسانية جديدة؟ ألا يقترح علينا القصص الديني عقدة أخرى غير هذه العقدة المركزية عقدة أوديب التي تحولت في الدراسات النقدية إلى مفتاح سحري يفسر مغاليق النصوص كلها19.

كما يتضح هذا الوعي من خلال حضور ضمير (نا) الذي يحيل بوضوح على العرب في مقابل الآخر الغربي، فمن الأسئلة التي يطرحها ويحيل فيها ضمير (نا) الدالة على الجماعة على حضور هذا الإحساس بالخصوصية الثقافية العربية: «ماذا عن حكاياتنا العائلية في نصوصنا الأدبية والروائية خاصة؟ كيف تقال حكاياتنا العائلية وكيف تكتب في الرواية المكتوبة باللغة العربية؟20.

وفي موضع آخر يقول: «هل استطعنا بناء رواية عائلية تسند وجودنا الحضاري من أجل مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل؟»21. وفي أحد تعليقاته على روايات نجيب محفوظ يطرح سؤالا صريحا يكشف حضور بعد الخصوصية لديه، يقول فيه: «هل يمكننا أن نخلص إلى أن الرواية العائلية في الكتابة الروائية العربية الحديثة، وروايات نجيب محفوظ بالأخص، وإن عرفت تحولا على مستوى الشكل الفني، فقد بقيت تتأرجح، على مستوى المضمون، بين حكايتين عائليتين: حكاية مواجهة العالم العائلي الواقعي المعيش وحكاية البحث عن عالم عائلي متخيل أسمى وأنبل، فلا هي عرفت كيف تتحرر من الأول، ولا هي عرفت كيف تؤسس الثاني؟ أليست هذه حكايتنا جميعا، نحن أبناء العرب في العصر الراهن؟22.

وقد دفعه هذا الوعي إلى العمل على نقل المفهومات النفسانية إلى الثقافة العربية مع مراعاة اختلاف السياق، يقول: «لم يعرف هذا المبحث (يقصد الرواية العائلية) طريقه بعد إلى الدرس النقدي العربي،... وفوق ذلك، ففي تراثنا السردي، وفي مكتبتنا الأدبية من النصوص ما يستدعي فعلا تدشين هذا المبحث حول «الرواية العائلية»23.

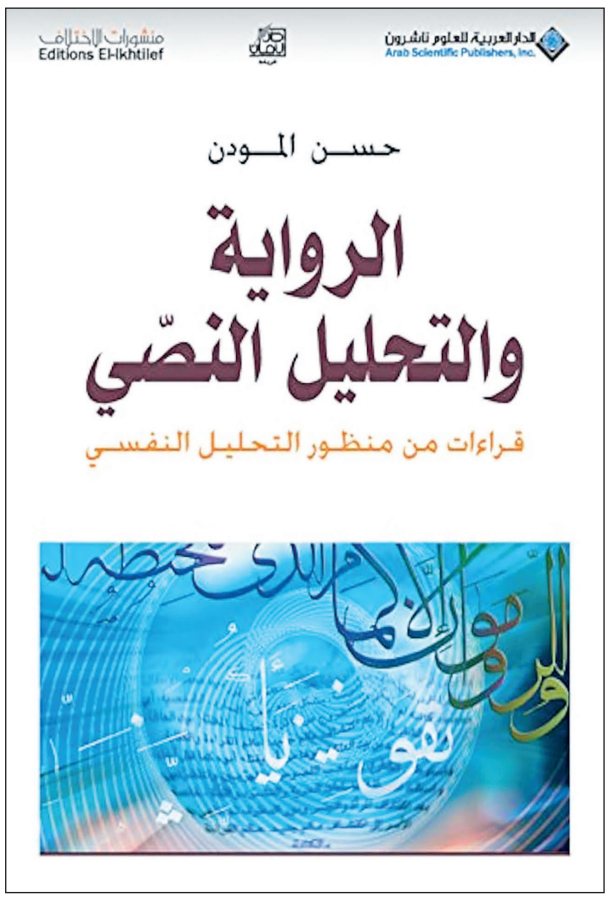

إن هذا الوعي باختلاف الشروط الثقافية، في اعتقادنا، أمر مطلوب بإلحاح في الممارسة النقدية؛ لأن عدم إدراكه من شأنه أن يدخل الخلل إلى العملية النقدية؛ سواء في منطلقاتها أو في مخرجاتها؛ فالناقد الذي يتنقل بين النقدين الغربي والعربي دون أن يبصر تلك العتبة الفاصلة بينهما يقع في الإسقاط والتعسف على النص؛ فالوعي بالخصوصية الثقافية أمر لا بد منه؛ فالثقافة «هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم»24، كما يرى الجابري، عملها هو الحفاظ على كيان الأمة ومقوماتها الخاصة.

4 - الشجاعة الاقتراحية: السعي للتجديد والإغناء

أعرب المودن منذ بداياته في ممارسة النقد عن روح التجديد والإغناء والتطوير، وعن طموح في الإسهام في إغناء المعرفة النفسانية حول الأدب، يقول في بحثه لنيل دبلوم الدراسات العليا(1996) في ساق حديثه عن منهج التحليل النصي: «لكنه ما يزال بحاجة إلى التطوير وإعادة النظر»25. إنه يعرب عن حسّ اجتهادي ينكر أن تظل وظيفة النقد النفسي هي أن يؤكد في كل مرة صحة ما وضعته النظرية النفسانية مسبقا من دون مساءلة لهذه المسلمات أو تقويم أو إعادة نظر.

لذلك نجده يحاور المسلمات الفرويدية ندا بند، ويناقشها طارحا عليها أسئلة عميقة تستند إلى الواقع الإنساني، وفي هذا السياق يشكك في أن تكون «عقدة أوديب» هي المركز في تأطير العلاقات الإنسانية، ويسائل هذه المسلمة قائلا: ماذا عن المحكيات الأدبية التي بدل أن تقتل الأب رمزيا، تقوم عكس ذلك ببعثه وإحيائه؟ ماذا عن محكيات لم تعد تحتفي بالأم فحسب، بل صار الأب هو موضوع احتفائها الرمزي؟ ماذا عن محكيات لا تواجه الأب، ولا تسعى إلى تعويضه بأب مثالي، لأنها على العكس تماما تحتفي بالأب الواقعي وتصوغه صوغا مثاليا؟26، وكأنه يحيل هنا على دور الأدب في قول الواقع الممكن والسعي إلى تحقيقه، لا الاكتفاء بوصف الواقع الكائن. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأدب هو المصدر الأساس للتنظيرات والتصورات النفسانية، فإنه من الممكن أن نفترض، بحسب المودن، أن تكون هناك في الأعمال الأدبية، القصصية، اقتراحات أخرى غير التي اقترحها فرويد الذي يعتبر مؤسس التحليل النفسي»27.

وفي سعيه الدؤوب إلى تطوير منهج التحليل النفسي النصي، يحاول المودن تقديمَ قراءات نقدية لمجموعة من النصوص، ويظلّ في ذلك وفيا لمنهج التحليل النصي، مصيخا سمعه لمَا تقوله هذه النصوص، وعَدّته في ذلك وزاده مجموعة من الافتراضات الجديدة التي يصوغها في شكل أسئلةٍ على النحو الآتي28: ألا يمكن للنقد النفساني أن يستمدّ مفهومات نفسانية جديدة من نصوص أخرى؟ ألا يمكن أن يستوحيَ عُقدًا أخرى من نصوص قد تكون قديمة أو حديثة؟ ما الأكثر فائدة بالنسبة إلى الأدب كما بالنسبة إلى التحليلَ النفسي: أهو العمل على تطبيق مركبات عقدية جاهزة على كلّ النصوص، قديمة كانت أو حديثة، أم السعيُ إلى استيلادِ مركبات عقدية أخرى من هذه النصوص بما يزيد من عمق فهمنا أو تفسيرنا للإنسان ولغته وأدبه؟ ألا يمكن أن نستمد مفهومات جديدة من المحَكي الديني الإسلامي؟ وبدل أن نطبق التحليل النفسي على النص القرآني، وأن نسقط عليه تأويلات قد لا تلائمه، أليس من الممكن أن نطبق المحكي القرآني على التحليل النفسي، فنستمد منه بعض المفهومات أو التصورات النفسانية التي تسهم في تطوير التحليل النفسي المعاصر؟29، وقد تأتى له ما أراد فأعاد تسليط الضوء على «عقدة الأخوة» التي استمدها من القرآن الكريم، وجعلها في مركز الضوء مبينا أهميتها في بناء العلاقات الإنسانية وأسبقيتها من حيث الأهمية على «عقدة أدويب» الفرويدية.

كما قاده حسه الاجتهادي إلى الإدلاء بدلوه في النقاش الدائر حول واقع النقد ومستقبله؛ فإذا كان بعض الدارسين الغربيين قد أعلنوا «نعي الناقد»، فإن أزمة النقد بالنسبة للمودن لا تتعلق بالناقد بقدر ما تتلخص في سؤال مغاير يتعلق بإفلاس نوع أو أنواع من النقد وأنه من الممكن ابتكار أو إعادة ابتكار نوع أو أنواع جديدة من النقد الأدبي؟»30. وفي إطار مشاركته في إيجاد حلول لأزمة النقد الأدبي يقترح ثلاثة مفهومات جديدة؛ أو لنقل ثلاثة أشكال من النقد الجديد استوحاها من قراءته الفاحصة للنقد النفسي الغربي، ولا سيما عند الناقد الفرنسي بيار بيار، يمكنها أن تضخ هواء جديدا في رئة النقد الأدبي، ولا سيما النفسي منه؛ هذه المفهومات يؤطرها تصور جديد للكتابة النقدية ينقلها من تلك الكتابة العلمية الجادة والتي تكاد تموت من جديتها31 إلى كتابة جديدة «أكثر حيوية، أي إبداعية»32، وهذا التصور هو ما يعرف بـ essai-fiction (المحاولة- التخييل)، والذي يفضّل المودن ترجمته بـ «التخييل النظري»، وهذه البدائل هي:

-1 النقد التدخلي: يختلف عن النقد التقليدي في كونه «لا يسعى إلى بناء معنى عن نص ما، أو عن عمل ما، بل إنه يتدخل من أجل تصحيح صورة أو معلومة أو حقيقة»33، وغاية هذا النقد هي إعادة البحث من جديد وعدم الركون لما قالته الدراسات النقدية السالفة.

-2 النقد التلبُّسي: إذا كان المفهوم الأول يخدم بالدرجة الأولى النقد؛ فإن هذا المفهوم مقترح لإحياء الأدب الذي تواترت الآراء على موته، وهو مفهوم استعاره من بيير بيار، يمكن من إعادة كتابة أعمال أدبية وفق الرؤية التي يراها الناقد ويريدها؛ ومعنى ذلك أن الناقد «سيحلّ محل شخصية في الرواية، وسيعمل على أن يعيش المواقف والوضعيات جميعها التي عاشتها هذه الشخصية»34.

-3 النقد التجويدي: ينطلق من منح الناقد حرية أوسع تمكّنه من تجويد بعض الأعمال الأدبية التي لم يحالف الحظ أصحابها كما حالفهم في أعمال أخرى، بمعنى أن مهمة الناقد «لا تتوقف عند حدود الحكم على العمل الأدبي بأنه جيد أو ردِيء، بل مهمّته أن يعيد كتابة العمل بالشكل الذي يجعله في مستوى الأعمال الأخرى للمؤلِف»35.

إن النقد الأدبي، في رأي المودن، إذا أراد أن يخرج من أزمته، فعليه أن يفكر في تجديد نفسه، وابتكار أشكال جديدة من الكتابة: كتابة مرنة تميل به نحو التخييل الذي يصبح سمة مشتركة بينه وبين الأدب؛ فالنقد، في رأيه، ليس حكما ولا علما، بل هو تخييل وابتكار أيضا... ينفتح على التخييل أكثر، ويتخلص من ذلك التضخم العقلاني الذي يوهمنا بأنه قادر على الإحاطة بحياة الشخصية الأدبية»36، ويبدو في رؤيته هذه مخالفا لما تبناه يقطين موافقا فيه دعوة غوتسشال إلى «علمية الأدب»37.

5 - أنسنة النقد

من حق المرء أن يتساءل: ما قيمة ما يكتبه هو أو ما يكتبه غيره إذا لم يكن يخدم الإنسان، وإذا لم تكن له وظيفة في دعم القيم الإيجابية؛ قيم البناء والتسامح والعدل والحق والحب والوفاء...؟ فالانشغال بالإنسان وما يتعلق به وبحياته وبسلوكه في هذه الحياة ينبغي أن يكون ديدن الإنسان الكاتب، كل واحد من موقعه وتخصصه، ولا سيما في زمن بدأت قيم الخير فيه تتوارى تاركة المجال للقيم النقيضة تتحكم في العالم وتحكم قبضتها عليه كقيم العنف والصراع والظلم التي يرزح تحتها العالم اليوم.

إن سؤال الإنسان وصلاح الإنسان وسعادة الإنسان من بين الأسئلة التي تشغل المودن، ويتعاطاها في عدد من كتاباته؛ إذ أتاح له تخصصه في التحليل النفسي للأدب أن يتخذ من الإنسان بؤرة تحليل في أعماله؛ فقد لا تجد دراسة من دراساته تخلو من استنتاج أو ملاحظة تربط الأدب والنقد بما هو إنساني وحياتي، من ذلك تساؤله: هل من الممكن أن يوجد الفرد وأن يحيا المجتمع الإنساني، وأن تنجح مشروعاته في التقدم والتطور من دون محكيات عائلية، ومن دون إعادة بناء محكياته العائلية الفردية والجماعية؟38، كيف تساعدنا الكتابة على الاحتفاء بهذه الغيرية التي نراها الأقرب إلينا والأكثر حميمية، وإن كانت مستحيلة على مستوى الواقع؟39

وفي أحد كتاباته يهتم بفئة مقهورة في المجتمع هي اليتامى، فيقول: ماذا عن محكي اليتيم؟ ماذا عن محكيات يتامى يتكاثرون في عصر يعرف الكثير من العنف والقتل والحرب؟40

ومن الخلاصات التي يسطرها في إحدى دراساته: «والحب هو أساس اللقاء بالآخر، فالحب يحيي الحوار والتواصل. أن تحب معناه أن تحسن الإصغاء للآخر، لمحكيه... والكتابة بهذا المعنى، تساعدنا على العبور من ذواتنا إلى الآخر، إنها باب مفتوح في وجه الآخر، ذلك الآخر المكبوت المقموع في دواخلنا»41.

كما نجده يسائل التحولات التي تمس اليوم مكون الأسرة، ولا سيما عند الغربيين، وكأنه يحذر من انتقال ذلك إلى الأمة العربية التي يعد البناء الأسري من أهم مكونات استمرارها؛ يقول ونبرة التوجس تطبع كلامه: «يمكننا اليوم أن نتساءل ماذا سيتبقى من روايتنا العائلية؟ وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار التحولات الخطيرة التي تعرفها البنيات العائلية، وخاصة في المجتمعات المتقدمة التي تعيش عصر «ما بعد الحداثة»؟42

وعلى الرغم من أنه يدرك بأن وضع العالم لا يطمئن، وأن كفة الشر تكاد ترجح به، كما يبدو من خلال الكتابة الروائية التي تتخذ من الواقع مرجعا أساسا لها43؛ فإنه ينظر إليه بعين لا تخلو من بصيص أمل يمتد ليشمل العلاقات الإنسانية عامة، يقول في نهاية دراسته للطيب صالح: «وبالرغم من أننا أمام كتابة برؤية مأساوية للعالم (الإيمان باستحالة طرد الشر من العالم طردا مطلقا)، فإنها رؤية التعايش وتعدد الأصوات، رؤية تصر على النظر إلى كل شيء على أنه متعايش، رؤية تخلق التعايش والتحاور بين الذات والآخر، بين الداخل والخارج، بين ما كان وما سيكون، بين فضاء المدينة وفضاء القرية، بين فضاء الغرب وفضاء الشرق، بين المعرفة والسلطة، بين الخير والشر»44.

يدعو المودن إلى إشاعة قيم التسامح بين البشر عامة وبين الأخ وأخيه، سواء أكانت الأخوة دموية أم في الإنسانية، طارحا إمكانية تحويل تلك «الرغبة المحكاتية» التي تشكل مصدر صراع بين الإخوة إلى مصدر للمحبة والتعاون؛ لأن الإنسان في الحقيقة لا وجود له إلا بأخيه الإنسان، مستخلصا ذلك من قصة يوسف عليه السلام التي تحولت في نهايتها الأخوة «إلى أخوة عجيبة تشكل كلا واحدا وقويا قادرا على مواجهة المحن والصعاب، وهي بهذا المعنى مرآة يصعب فيها التمييز بين الأنا والآخر، لما بينهما من التماسك والتضامن والمحبة»45. ويرى بأنه لا سبيل إلى إقامة الجماعة الإنسانية واستمرارها إلا بتجاوز الصراع مع الأخ، والتخلص من الأنانية العصبية، والسعي إلى التماهي معه؛ لأن «القوة لا يمكن أن تتحقق إلا في وجودنا بطريقة جماعية، يطبعها التواصل والتماسك والتعاون، وتحتفي بقيم الحب والخير والحياة»46.

ولعل إحدى أبرز غايات النقد النفسي في تصوره أن يبحث في تلك المركبات العقدية التي تحكم نفسية الإنسان عن لاوعي ويشرحها، ثم يبحث عن السبل الموصلة إلى تحويل العداوة إلى محبة، والتنافس إلى تعاون، والصراع إلى تضامن، من أجل مجتمع إنساني أفضل يمنح مسألة الأخوة أبعادا إيجابية (التواصل، التفاهم، الاعتراف بـالآخـر...) بدلا عن تلك الأبعاد السلبية (الغيرة، الحسد، الكراهية، الأنانية...)47. والاشتغال بمفهومات النقد النفسي في تحليل النصوص تحليلا يربطها بالإنسان يتيح للناقد، في رأي المودن، نوعا من التفكير المعمق في الحاضر والماضي، في العصر والذاكرة، وأنه محكي يتأسس على كلام يبدو أنه نابع من داخل الوجع والألم، يريد أن يؤلف مشروع استعادة وتركيب للماضي، ومشروع تفكير في المستقبل والمصير»48.

إن هـذا البعد الإنساني في نقد الـمـودن، في اعتقادنا، سمة مائزة ينبغي التنويه بها وتثمينها؛ لأنها تسعى إلى تقريب النقد من حياة الناس وواقعهم، وإلى أن تجعل منه خطابا مسخرا في خدمة الإنسان، ولصالح حياة أفضل، بناء على ما يبلور من خلاصات واستنتاجات تبشر بقيم وتدين أخرى، مستثمرا رؤيته حول النقد التي تجعل منه خطابا له شعريته وجماليته؛ يدعو إلى ما يدعو إليه، ويدين ما يدين بأسلوب ناعم لا يخرجه عن دائرة جنسه الذي ينتمي إليه، ولا يحوله إلى أسلوب في الوعظ.

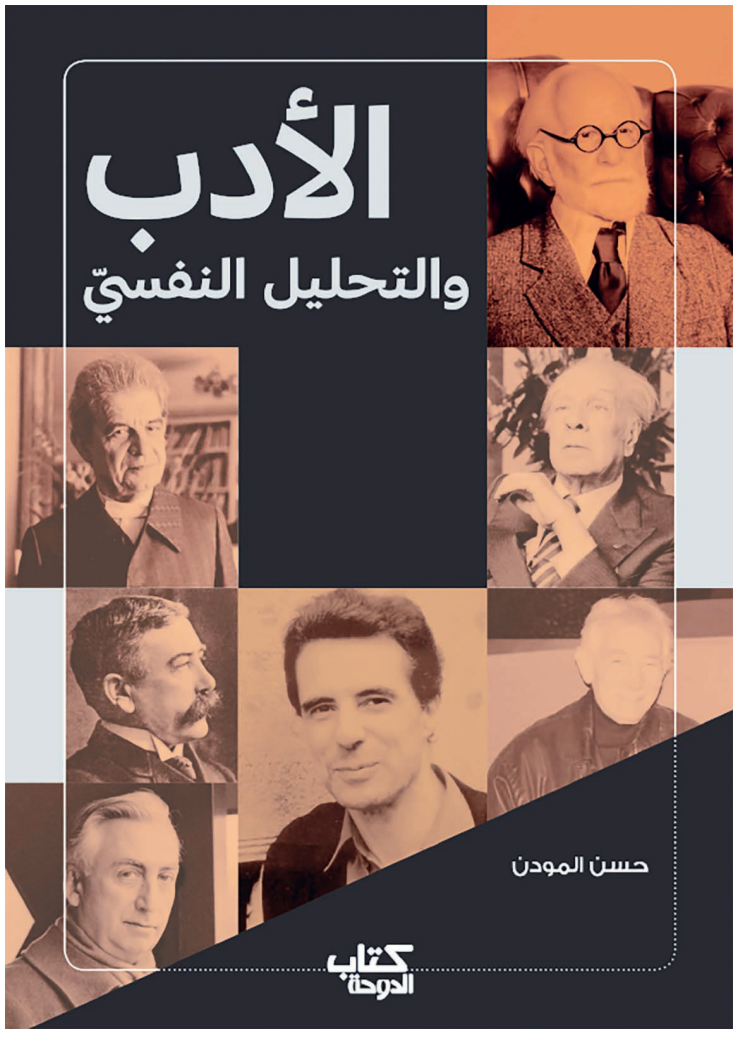

لائحة المصادر والمراجع:

-إبراهيم أولحيان (إشـراف وتنسيق): حسن المودن والتحليل النفسي، تحرير إبراهيم أولحيان، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2013.

-الجابري محمد عابد: المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994.

-كارلوني وفيلو: النقد الأدبي، كتاب الدوحة، ع.139، 2019.

مجموعة باحثين: ترجمة رضـوان ظاظا، عالم المعرفة، ع.221، مايو 1997. أغسطس، 2019

-المودن حسن: الأدب والتحليل النفسي، كتاب الدوحة، العدد 99.

-المودن حسن: الرواية العائلية من الرواية العائلية إلى محكي الانتساب العائلي قرءات من منظور التحليل النفسي، كتارا، الدوحة، ط1، 2017.

-المودن حسن: الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.

-المودن حسن: لاوعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2002.

-المودن حسن: من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، ماكدونالد، مانغينو، منشورات المتوسط، ميلانو- إيطاليا، 2024.

-المودن: الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقاربة نفسية جديدة، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2024م.

-يقطين سعيد: الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق، صفاف- دار الأمان- الاختلاف، ط1، 2014.

Philippe Mangeot, Lise Wajeman: Fiction Critique :« Entretien -
.(N? 54) 1/avec Marc Escola», Vacarme 2011

هوامش:

1 - حسن المودن والتحليل النفسي، تحرير إبراهيم أولحيان، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ص.17.

2 -كارلوني وفيلو: النقد الأدبي، كتاب الدوحة، ع.139، 2019، ص.104.

-3 حسن المودن : لاوعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2002، ص.9.

4 -سعيد يقطين: حسن المودن والتحليل النفسي، تحرير إبراهيم أولحيان، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ص.25.

5 - محمد الداهي: حسن المودن والتحليل النفسي، ص.46.

-6 نجيب العوفي: حسن المودن والتحليل النفسي، ص.17.

7 -يقطين: حسن المودن والتحليل النفسي، ص.26.

8 -شطر بيت من معلقة الأعشى.

9 -مجموعة باحثين: ترجمة رضوان ظاظا، عالم المعرفة، ع.221، مايو 1997، ص. 10.

10 -نفسه، ص. 8.

11 - أولحيان: حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، ص.8.

12 - برادة: حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، ص.14.

13 - المودن: لاوعي النص في روايات الطيب صالح، ص.42.

-14 المودن: الأدب والتحليل النفسي، كتاب الدوحة، العدد 99، أغسطس، 2019، ص.6.

15 -نفسه، ص.10.

-16 نفسه، ص.11.

17 --المودن: الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص.4.

18 - نفسه، ص-ص.9-10.

19 - المودن: الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقاربة نفسية جديدة، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2024م، ص.25.

20 - المودن: الرواية العائلية من الرواية العائلية إلى محكي الانتساب العائلي قرءات من منظور التحليل النفسي، كتارا، الدوحة، ط1، 2017، ص.8.

21 - نفسه، ص.148.

22 - نفسه، ص.37.

23 -نفسه، ص.8.

24 - الجابري: المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص.39.

25 -المودن: لاوعي النص في روايات الطيب صالح، ص.42.

-26 المودن: الرواية العائلية، ص.23.

27 - القصة القصيرة والتحليل النفسي، مقاربات، ص.9.

28 - المودن، الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، ص.12.

29 -نفسه، ص.25.

30 - المودن: من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، ماكدونالد، مانغينو، منشورات المتوسط، ميلانو- إيطاليا، 2024، ص.51.

Philippe Mangeot, Lise Wajeman : 31- Fiction Critique : « Entretien avec Marc .N? 54), p-p.42- 43) 1/Escola », Vacarme 2011

.Ibid, p-p.42- 43 32-

33 -المودن: من قال إن الناقد قد مات؟، ص.73.

34 - نفسه، ص.110.

35 - نفسه، ص.115.

36 - نفسه، ص.47.

37 - سعيد يقطين ، الفكر الأدبـي العربي البنيات والأنساق، صفاف- دار الأمـان- الاختلاف، ط1، 2014، ص.46.

38 - المودن: الرواية العائلية، ص.10.

-39 نفسه، ص.23.

40 - نفسه، ص.23.

41 -نفسه، ص.144.

42 -نفسه، ص.147.

43 -يقيم المودن، هو الآخر، تناظرا بين النقد والواقع، ويتخذ نقده من الواقع مرجعا أساسا، ويقدم تأويلا بناء على هذا التناظر عبر عنه في إحدى الخلاصات التي خلص إليها في كتاب الإخوة الأعداء، جاء فيها: «فهوية النص لا يمكن إلا أن تكون هجينة مركبة متعددة، ذلك أن اللاتجانسية أي التعايش هو ما يشكل الواقع، واقع الإنسان كما واقع الكتابة». (الإخوة الأعداء، ص.171.)

-44 المودن: لاوعي النص في روايات الطيب صالح، ص.376.

45 - المودن: الإخوة الأعداء، ص.52.

46 - نفسه، ص.53.

47 -نفسه، ص.15.

48 -المودن: الرواية العائلية، ص.97.

رهانات المقاربة النفسية الجديدة

في كتاب «الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي»

د. محمد زهير

تجدر الإشارة أولا إلى أنه كلما تعمقنا في أية نظرية إلا ورأينا إمكانات لتوسيع أفقها ، بما يجد من تطورات في مجالها المعرفي ، وهو هنا مجال علم نفس الأدب ، وبما يجد في الحقول المعرفية ذات الصلة. فاستمرار النظرية على حالها دون مراجعة وإعادة نظر ، يحيلها معيارا مطلقا أوشبه مطلق ، يكررناتج تطبيقها الحرفي في جمود متواتر. كحالة الارتكان الواثق من النقد النفسي المتابع لنظريات المحلل النفسي سيجموند فرويد. وفي مركز نظرياته أو أطروحاته نظرية عقدة أوديب .

ومن أبعاد أهمية كتاب الدكتور حسن المودن « الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي – مقاربة نفسية جديدة » – وهو شرفة من مشروع الأستاذ المودن – ، من أبعاد أهمية هذا الكتاب ، التفاته إلى حالات ومجالات مراجعة وموسعة لمدار علم نفس الأدب ، بما يتجاوز حدود المؤطرات النظرية التقليدية لهذا العلم ، ويساير تطوراته الراهنة في منظوراته وإجراءاته الجديدة ، توافقا مع ما يقتضيه رهان التطور من تنسيب لأية نظرية. وهو ما انتبه إليه الأستاذ المودن ، فتعامل مع طروحات المحلل النفسي فرويد على هذا الأساس النقدي المراجع ، ومنها أطروحته عن عقدة أوديب ، التي تقع في مركز استخلاصاته ونظرياته ، والتي اعتبرها مدى حياته مركز تحليله النفسي وسنده الأساس. لكن يمكن القول اليوم إن الأهم هو ما أثارته هذه النظرية ، وغيرها من طروحات فرويد ، من نقاشات ومراجعات أسفرت عن فتح آفاق للتحليل النفسي أكثر خصوبة واقناعا ، كما تقتضي المسارات المعرفية المتجددة.. وفي ركب هذا التطور المراجع ، ومن ضوء انتباه الباحث حسن المودن إلى تصيير عقدة أوديب قاعدة في التحليل النفسي المتابع ، نجده منذ مقدمة الكتاب يطرح أسئلة محورية من قبيل : لماذا لم يتابع فرويد أسطورة أوديب بعد نفيه خارج مدينة طيبة؟ وصدام ابنيه أخويه في صراع بينهما على الحكم صداما أدى إلى قتل أحدهما؟. وقتل الأخ لأخيه هو ما عرض له سوفوكل في مسرحيته « أوديب في كولون » متابعا مصير أوديب بعد نفيه خارج طيبة .

قبل أسطورة أوديب يتساءل الأستاذ المودن: ما دلالة قتل قابيل لأخيه هابيل في القصص الديني؟ وما دلالة قصة يوسف الصديق وفعل إخوته المتواطئ على التخلص منه؟ وما دلالة هذا الحضور للإخوة الأعداء في المنجز الدرامي والسرد الأدبي، وفي واقع الحياة دون انقطاع؟ .. لكن دون أن يحظى إلا في حدود ضئيلة بالرصد والتحليل كما حظيت بهما عقدة أوديب؟ التي استخلصها فرويد من قراءته لنصوص درامية وخاصة من مسرحية أوديب ملكا لسوفوكل، ومن نصوص روائية غربية، لتأخذ هذه العقدة عند متبنيها لبوس نظرية أو عقدة أبوية متعالية أو تكاد .

من هذه الزاوية أرى أهمية ما يمضي فيه الباحث من مساءلة لما درج عليه النقد النفسي التقليدي، مساءلة بعين المراجع لا المتابع المستهلك، المراجع الذي يرى في النظرية إمكانا من بين إمكانات أخرى، يتيحها تطور الإبداع وتطور النظرية في سياقات تطور الحياة وتطور المعرفة.. ولذلك وحرصا على تفادي القطع بالرأي والتزام النظر إلى الخطاب، في انفتاحه المقترح لأكثر من إمكان، ينطلق الباحث من أسئلة وافتراضات هي معالم تقصيه والضوء الهادي إلى إمكان الإضافة، إذ للسائل بصيرة تنظر إلى أبعد أما متلقي الأجوبة جاهزة فمستهلك دون أفق.. من هنا مرافقة الباحث واهتداؤه بأرصدة باحثين ونقاد نفسانيين مجددين، أخرجوا التحليل النفسي من نفقه المغلق إلى مجالات جديدة انفتح بها مداه: جاك لاكان، جان بيلمان نويل، رونيه كاييس، رونيه جيرار، بيير بيار، وغيرهم.. ممن وجد الباحث في أرصدتهم استجابة لرهانه في منعطف اعتبار الأدب هو المضئ للتحليل النفسي لا العكس. فتطور التحليل النفسي للأدب وقف على تطور الأدب، الذي لا تتوقف حركية تجدد إنتاجه.. فالأدب ليس مجرد حقل لإسقاط تخريجات التحليل النفسي وتطبيقها قسرا عليه، الأدب هو المصدر والحجة لا الذريعة والمطية، فعلى التحليل النفسي الإنصات إليه والسير في ضوئه، لا إملاء عليه ما أرفده الأدب به في تكرار يقصر عن ملاحقة ما يضرب الأدب إليه من أبعاد، في مسارات تجدده المتلاحق في سياقات تحولات الحياة وتجارب الإنسان في تقلباتها.

فعلى رهان مجاوزة تضييق الخناق على الأدب بجاهز معايير التحليل النفسي التقليدي، يؤسس الباحث مشروعه بما يلزم من الاطلاع الواسع، وقلق المساءلة والاجتهاد والتواضع الضروري لبناء المعرفة المنتجة. فمما جاء في مقدمته لكتابه قوله: « أفترض في هذه المحاولة أنه من الممكن أن نستمد من النصوص الأسطورية أو الدينية أو الأدبية مفهومات وتصورات نفسانية مختلفة ومغايرة لتلك التي صرنا نسقطها على الكثير من النصوص؛ فبدل أن نسقط مفهوما ما نفسانيا على نص ما، سيكون من الأفضل أن نتساءل: ألا يمكن لهذا النص أن يسمح لنا بأن نستمد منه مفهوما نفسانيا جديدا، فنسجل للنص الأدبي أصالته وفرادته، ونسهم، انطلاقا منه، في تطوير معرفتنا بالإنسان، بلغته وأدبه، وخاصة من الناحية النفسانية» .

ووفق برنامج بحثه فالتركيز على عقدة الأخوة شكل مدار مقاربة النصوص في الكتاب، وهي نصوص دينية ونصوص أدبية غربية وأخرى عربية حديثة .. وهو لا يلغي عقدة أوديب عند فرويد، ولكنه يعيد النظر فيها بما يضيف إليها أو حتى يغير من

استراتيجيتها ، ومن ثمة يعيد النظر ضمنا في قراءة من اتخذها مفتاحا دون غيرها ، على أساس أن للنص مداخل غيرها ، وقد تبين أن ثمة عقدا مقصاة أو متوارية عن النظر الموجه بالمعيار كصاحب الحاجة العمي عن غيرها، ومن تلك العقد المقصاة أوالمتوارية عن النظر الموجه بالمعيار عقدة الأخوة ، الخبيئة أحيانا فيما يتراءى أنه عقدة الأب، ومن ثمة كان توجه استبصار الباحث إلى المتواري أو المتروك هملا، أو المسكوت عنه أو المنظور إليه عرضا .. يتجه الاستبصار إلى ما يفتح النص على قراءات مختلفة ومن زوايا مختلفة، عن طريق القراءة المختلفة المستندة إلى ما يدعمها من صلب النص نفسه.. فالباحث لا يلغي قراءة غيره، وإنما يستشرف الإضافة إليها من مسالك أخرى ومن زاوية نظر مختلف، أي من رهان إمداد الأدب التناول النفسي بروافد محركة لساكنه ومزيحة إياه عن المراوحة في دائرة مغلقة، حتى ينفتح باستمرار كانفتاح النص الأدبي، المؤطر هنا للتحليل النفسي والمختبر لمدى نجاعته، بدل إخضاع الأدب له بجاهز مكرس كالقانون المغلق .

وأي نظرية كيفما كانت قوة طرحها وقوة انتشارها، فإنها بمرور الزمان يلحقها البلى وتظهر فيها فجوات، في مجرى التقدم المتصاعد للأنظار والأبحاث والاستقصاءات والمراجعات المعرفية والكشوفات العلمية .. هذا في مجالات العلوم التجريبية نفسها، فبالأحرى في مجالات العلوم الإنسانية ونسبيتها تفوق نسبية غيرها لما تفسح من مجال لوجهة النظر على أساس داعم لها .. ووفق هذا التنسيب المتطلع إلى الإضافة واتساع مجال البحث كان مسار الباحث، فهو بالأساس مسار تساؤلات وافتراضات، أي مسار المراجع دون ادعاء اليقين، وإنما يوقف على الأدلة الضرورية لحضور عقدة الأخوة في النصوص التي قاربها، والتي تدل على مركزية هذه العقدة وإيغال تأثيرها في النفس البشرية وملابسات ما يعتري واقعها من صدامات وتصدعات، فتستدعي بذلك أن تقع في صلب التحليل النفسي . ولهذا يصرح أنه إذا كان التحليل النفسي، وخاصة عند فرويد، قد استمد من الآداب القديمة والحديثة ما أسس به انقلابا جذريا في فهم الإنسان وتفسيره؛ فإنني أزعم أن إعادة قراءة الآداب الإنسانية، القديمة والحديثة، يمكنها أن تساعد على تطوير مفهوماتنا النقدية والنفسانية، بما يغير من تصوراتنا للآداب الإنسانية التي كانت دوما تولي عناية خاصة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان « سواء كانت الأخوة من الصلب البيولوجي أو أخوة رابط ما، أو مطلق الأخوة في المعيش الحياتي. والهدف البعيد من كل النصوص المتناولة في الكتاب، وغيرها من النصوص التي تحضر فيها هذه العلاقة ، أن يرتقي الإنسان بعلاقته مع أخيه في ظل حياة إنسانية لا تكدرها احتقانات وعداوات وأحقاد ، ولاتدمرها حروب وإبادات .

والناقد نافذ الرؤية ينصت إلى النص من مواقع لم ينشغل بها غيره، أو مر بها سريعا دون إيلائها ما تستحق من اهتمام واستقصاء .. ومن هذا البعد لاحظ الباحث امتداد رؤية محللين نفسانيين استمدوا مفاهيم نفسانية من الخطابين الدينيين اليهودي والمسيحي، فتساءل: ما المانع من استمداد مفاهيم نفسانية من الخطاب الديني الإسلامي؟ في سعي إلى سد بعض الفراغ في هذا الاتجاه، مما يندرج ضمن رؤيته المراجعة، ومحاولته النفاذ إلى مناطق تساهم في اتساع جغرافية مفاهيم وأنظار وممارسات التحليل النفسي في مجال النقد الأدبي وروافده .

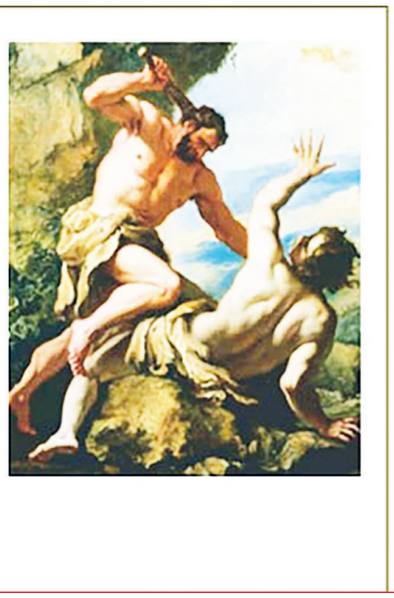

ومن حصيل الباحث المعرفي رأى ان عقدة الأخوة أكثر خطورة من عقدو أوديب، التي هيمنت عليها في التحليل النفسي التقليدي. وعقدة الأخوة - يرى الباحث - أكثر خطورة لما لها من تداعيات ورواجع على قيم التساكن والأمن والاستئمان. ومن إدراكه لهذه الخطورة كان سفره في منعرجات النصوص المتناولة، بعد المقدمة والمدخل المضيئين لمسار البحث .. والسفر في الفصل الأول كان للوقوف على عقدة قابيل، عقدة الأخوة في النصوص الدينية، فكان الوقوف على هذه العقدة في قصة يوسف الصديق ومقابلة أحداثها بأحداث قصة أوديب، للوصول إلى نتيجة أن عقدة الأخوة هي المحور المركزي في قصة يوسف الصديق، عكس المتداول عنها الدائر على عقدة الأب أي عقدة أوديب . فالباحث استحضر قصة يوسف لبيان أساسية عقدة الأخوة فيها، والتي بفعلها كان الانعطاف الجذري في أحوال يوسف بعد الفعل العدواني من إخوته .. وتأصيلاً لعقدة الأخوة يعود الباحث بأصل هذه العقدة في النص الديني إلى قصة قابيل وهابيل، وبؤرة التراجيديا في هذه القصة قتل قابيل لأخيه هابيل، بدافع الأنانية أو بدافع غيرها مما يعمل على تأجيج العداوة بين الإخوة . وفي تناوله لقصة قابيل وهابيل يستدعي تأويلات وتخريجات العديد ممن انشغلوا بهذه القصة، مفسرين دينيين ومفكرين ومحللين نفسانيين، ليخلص، من ضمن ما يخلص إليه، إلى: « أن الصراع بين الإخوة كان الخاصية الراسخة للعائلة الأولى ، وأن قتل الأخ لاخيه ، لا قتل الابن لأبيه ، هو الأصل الذي يرد إليه كل قتل أو عنف «. وقتل الأخ لأخيه هو ما تغاضت عنه أو أغفلته عقدة أوديب .. وتتناسل عقدة الأخوة في الأساطير وفي المحكيات الدينية وغيرها، وفي واقع الحياة وملابساتها، يؤكد رسوخ هذه العقدة أصلاً ملازما وعقدة متناسخة، ما فتئت تتكرر وتتوالى حالاتها صدمات كالحة في إثر صدمات .. وهو ما يدعو إلى مداومة مساءلتها فلسفيا ونفسيا واجتماعيا وسياسيا .. وهي العقدة المحيرة في جميع الأحوال .. وفي سياق استدعاء الباحث للنصوص الدينية، عاد ضمن ما عاد إليه منها، إلى صراع الأخوين إسماعيل وإسحاق. والتواءات هذا الصراع وتعقيداته كانت أيضا في مدار انشغال الباحث، مستحضرا في هذا السياق آراء باحثين ومحللين، خاصة عبد الكبير الخطيبي وفتحي بن سلامة وماري بالماري، فضلا - بطبيعة الحال- عن آراء الباحث وتساؤلاته واستخلاصاته الشخصية .

ومن عقدة الأخوة الواغلة في القدم وأزمنة التاريخ، وإلقاء أضواء عليها في نصوص دينية وأخرى أسطورية، يتقدم الباحث وجهة الآداب الغربية الحديثة، للوقوف على حالات من مجابهة الإخوة الأعداء في نصوص من هذه الآداب، بادئا بوقفة عميقة على قراءة رولان بارت لتراجيديات جان راسين، لأبطال هذه التراجيديات وليس لشخص راسين من خلال أبطال تراجيدياته، أو إسقاط عناصر من حياة المؤلف على حياة أبطاله الورقيين، كما يفعل النقد البيوغرافي في خلطه بين حيوات شخصيات النصوص الأدبية وحيوات مؤلفيها .. رولان بارت يطل على التحليل النفسي من نافذته هو، من نافذة بارت التي يتجه ضوؤها إلى النص بمعزل عن مؤلفه، النص في حضوره اللغوي مقروءا من رؤية القارئ الخاصة، لا بعين الناقد البيوغرافي الذي يرفض بارت منهجه الإسقاطي، رفضه لأيديولوجيا النقد النفسي في صورته المعيارية المستعيدة للمستعاد .. فقراءة بارت لتراجيديات راسين قراءة صوته الخاص في سياق تحولات ثقافية وتاريخية، تختلف عن سياق النقد النفسي الكلاسيكي وإجراءاته المنغلقة .

لكن الباحث حسن المودن، وهو يسجل أهمية التفات بارت إلى صراع الإخوة في تراجيديات راسين، يستحضر من بيوغرافيا بارت نفسه، يتمه من أبيه منذ بدء طفولته ثم دخول أخ غير شقيق لحياته، وما يتوقع أن يحدث هذا الطارئ على بارت الحدث يتيم الأب. ومن خلال هذا الاستحضار يخطر للباحث هذا الخاطر، المرتبط بانشغاله بإشكال الإخوة الأعداء : « أزعم أن عقدة قابيل هي التي كانت تشغل بارت ، عن وعي أولا وعي ، وهي التي دفعته إلى قراءة جان راسين ، هذا الذي كان – ويا للمصادفة ! - يتيم الأبوين أيضا، ومنذ طفولته الأولى « وعلى هذا فلمشترك بين القارئ والمؤلف كان الانجذاب إلى نصوص هذا الأخير، وللنفس البشرية غوامض وأسرار تتخفى في مكامنها متوارية عن السطح .

ومسرحية « هاملت « لشكسبير طالما قرئت بجاهز عقدة الأب، في حين أن عقدة قتل الأخ لأخيه الملك وزواجه من زوجته واستيلائه على ملكه، جريمة صاعقة الظهور في المسرحية. عقدة قابيل إذن هي مركز المسرحية، وهي العقدة التي قلما كان الالتفات إليها.. وقد أفضى تناول الباحث للمسرحية إلى أن المحرك المحوري فيها هو قتل الأخ لأخيه، الجريمة التي أفضت في نهاية المطاف إلى عاصفة دماء .

وتابع الباحث فيما تلى من مباحث كتابه، تقصيه لعقدة الأخوة في نصوص من الرواية الغربية الحديثة، ومنها نصوص من الرواية البوليسية .. ليعبر بعد ذلك إلى ضفاف الرواية العربية، راصدا امتدادات صراع الإخوة في نصوص منها، لنكون بهذا الاستقطاب لمختلف النصوص وعبر الأزمنة والحقب، أمام عقدة مركبة الإشكال لم تجد البشرية بعد ما يطفئ أو يحد من ضرامها المتوصل ..

الهوامش:

1 - د . حسن المودن - الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي - مقاربة نفسية جديدة - دار كنوز - الأردن 2024

-2 نفسه المقدمة - ص: 12-13.

-3 نفسه - المقدمة - ص : 15 .

4 - نفسه - ص: 67 .

5 - نفسه - ص : 106 .

الأستاذ الدكتور حسن المودن كما عرفته..

فتح لطلبته قلبه وجيبه وبيته

أحمد أيت علي أبهي

إن كل ما أقوله وأسجله في هذه الكلمة القصيرة ، قد أملاه علي حب صادق لأستاذي الدكتور حسن المودن ، ورغبة ملحة في الوفاء له ،والاعتراف ببعض ما لفضيلته من فضل جزيل وخير كبير وأيد كثيرة علي ،ألم يقل المتنبي :

وقيدت نفسي في ذراك في محبة
ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

غير أن قيد الإحسان هو قيد حرية ومحبة ، يحرك في الإنسان أسمى مشاعر الصدق ، كما أن كلماتي هذه ليس للمجاملة حظ فيها ، ودليلي في هذا أنني قلتها مرات ومرات خلف ظهر الأستاذ ، وما الفارق اليوم ، إلا أني أقولها أمامه وأمام محبيه ، وهي ليست بلساني فقط ، بل إن فوجي بأكمله ، فوج أساتذة الثانوي التأهيلي لسنة 2025 الذين شرفوا بالتتلمذ عند فضيلة الأستاذ ، كلهم يشاركونني فيها ، لذلك شرفوني بأن أنوب عنهم في إبلاغها ومشاركتها بهذا المقام العلمي والإنساني الصادق والنبيل ، وكلمتي شهادة في حق الأستاذ كما عرفته ، وهي على المحاور التالية..

حسن المودن الأستاذ

تعرفت على الأستاذ الدكتور حسن المودن لأول مرة، حين كان أستاذا لي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، وقد عرفته قبل ذلك في تسآلي عنه من خلال طلبته السابقين، فكانت شهاداتهم تجمع على أننا سنلتقي بأستاذ عظيم وعالم جليل، له شخصيته العلمية والتربوية المتفردة، ويوصون جميعا: اغتنموا جلوسكم أمامه واستغلوا ساعاتكم معه. فلما تعرفت عليه وجلست أمامه ونهلت من معينه، أدركت أن شهاداتهم على صدقها لم توفه جميع حقه، وليس من رأى كمن سمع.

يتميز الأستاذ حسن المودن بشخصية أستاذية آسرة، كيف لا، وهي المهنة التي حمل اسمها طوال حياته، وأنفق إخلاصا لها وغيرة عليها الكثير والكثير من صحته، وليس الأستاذ حسن المودن ممن يحمل صفة الأستاذية ويتخذها مجرد مهنة، بل إنه ممن قد وهبها حياته، وجعل الإخلاص والجدية والاجتهاد والتألق والصرامة عناوين عريضة تلخص مساره فيها، كنا نتعجب كثيرا من إصراره على العمل بوتيرة عالية، محاضرا ومكونا وموجها ومرشدا، من داخل المركز، ومن منزله لا يتوقف عن التواصل معنا، وإرساله وتقاسمه كل ما من شأنه أن تكون له فائدة في تكويننا، يعرف من يعرف الأستاذ حسن المودن مشاكله الصحية -نسأل اللّه له الشفاء والعافية والبركة في الصحة والعمر- غير أنه كان يجاهد لإخفاء عيائه وتعبه، ولا تسايره نفسه على الخلود إلى الراحة، بل ما أن تبدأ الحصة، حتى يستعير من إخلاصه العجيب وتفانيه النادر، قدرة شاب قوي لم تفعل الحياة فعلها في صحته، فتجده طوال الحصة -غير مضيع دقيقة منها- يساعد ويرشد ويعطي ويشارك خبرته وتجاربه وعلمه، إنه على كبر سنه -أطال اللّه عمره- ومشاكله الصحية كان يشتغل بوتيرة مجهدة ومضنية، وكم أثر ذلك على صحته ولا يزال، غير أن من ألف الاجتهاد والجدية والتفاني لا يستطيع أن يحمل نفسه على غير ما ألفت، ولو كان ذلك على حساب صحته وراحته. وتتميز الشخصية الأستاذية للدكتور حسن المودن، بمزيج بديع من صفات كثيرة، فهو مع طلبته ليس مجرد أستاذ، بل كذلك الأب الحاني الرحيم الذي لا يرضيه إلا أن يرى أبناءه أفضل منه، وحقا كان أبا لنا جميعا، وهذا شعور كان يستشعره ويعتز به جميع طلبته، وهو كذلك الأستاذ الصارم الجدي، وإن بين الصرامة والقسوة لخيطا رفيعا، كان يتقن الأستاذ حسن المودن الإمساك به، وكنا ندرك إدراكا لا يشوبه شك أن صرامته ليس باعثها حب التسلط والتعالي، بل إن حب صادق وغيرة شديدة من أب حان ورحيم لا يرضيه -كما ذكرنا- إلا أن يرى أبناءه أفضل منه:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

حسن المودن العالم

ليس شأن حسن المودن العالم كشأن حسن المودن الأستاذ، فإذا كان لا يعرف وجه الأستاذ منه إلا تلامذته وطلبته ومن أخذوا العلم على يديه، فإن وجه العالم منه ذائع الصيت لا ينكره أحد، ودوننا مؤلفاته الغزيرة متنوعة المشارب، وترجماته الجادة والرصينة، واهتماماته ومشاركاته الثقافية والفكرية والإعلامية المتعددة والمتميزة، التي تشهد على شخصية علمية فذة وهبت للعلم حياتها، وأنفقت في سبيله عمرها، وها نحن نراه وهو على مشارف التقاعد لا يزال يكتب ويبحث وينشر، مما يؤكد على أنه قد اتخذ العلم رسالة حياة، لا مجرد وسِيلة للترقية المهنية أو عنوان مرحلة دُمِلت عليها النفس كرها، غير أنني أود الحديث عن جهة تتبدى فيها عالمية الدكتور حسن المودن وقد لا يعلمها عنه الجميع، جهة شهدناها نحن طلبته، من خلال محاضراته وحصصه التكوينية.

إن السمة الكبرى في عالمية الأستاذ هي موسوعيته الرهيبة، وقدرته الكبيرة على الخوض في حقول معرفية شتى، فإن تحدث عن النقد سواء القديم أو الحديث قلت إنه في النقد قد تخصص، وإن تحدث في الأدب وجدتَ عالما بقديمه وحديثه، عربيه وغربيه، غزير القراءة فيه والاطلاع عليه، وإذا عطف إلى اللسانيات أو السرديات أو السيميائيات أو غيرها من الحقول المعرفية ألفيته سيلا منهمرا من المعرفة، ولا يقدم معرفة بيداغوجية مطروحة في الطريق، بل إن دأب الأستاذ في كل ما يخوض فيه من شأن العلم والمعرفة، هو إقدامه على المصادر الكبرى في أصولها وبلغاتها التي كتبت بها، أما الحجاج فهو صاحبه، ولم يجعل منه مجرد معرفة أكاديمية، بل إن شخصية الأستاذ تحكي تشربه وتمثله لمبادئه العليا، فهو أبعد الناس عن التعصب الأيديولوجي أو التحزب الفكري، بل صدره رحب لجميع الأفكار، وإذا حاور أو ناقش أو خالف، فإنه يفعل ذلك برصانة وحكمة العالم بنسبية الفكر البشري، وحتمية الاختلاف الإنساني، المؤمن بأن مظلة الإنسانية واسعة تسعنا جميعا مهما اختلفنا وتنوعنا، وقد حاول جاهدا تربيتنا على هذه المبادئ وسعى إلى غرسها فِينا، أما العلوم التراثية فقد يدخل الجاهلَ الشك في تمكنه منها إذ لم يؤلف فيها كثيرا، لكنْ من عرف الأستاذ تأكد من علو كعبه فيها وقدرته على تطويعها في يده تطويع العالم المتمكن الذي أنفق فيها كل جهده، وإذا انتقل إلى الحديث في الرواية أطرب وأتى بحديث الناقد المتعمق في دقائق البناء الروائي، وهو قارئ نهم للرواية، سواء العربية أو الأجنبية، ولعل ذلك ما قاده إلى الاشتغال بالروائي العظيم الراحل الطيب صالح وبالرواية العربية والمغربية بالخصوص وكذلك الرواية القطرية. أما إذا ولج إلى عوالم التحليل النفسي الغامضة، فاستعد

حسن المودن أو الأستاذ الذي تمثل الممارسة التربوية في بعدها الإنساني

بقلم : خديجة أيت مولاي

إن الحديث عن الأستاذ الدكتور حسن المودن ليس استعراضا لمسار يستحضر ولا استقصاء لمنجز يعد ويحصى، فذلك مما يضيق عنه المقام وتعجز دونه الأقلام، وإنما هو شهادة علمية يفرضها صدق الأثر في التكوين ويستدعيها واجب الوفاء وحق الاعتراف بمناقبه حيث يعجز اللسان وتتوارى العبارة عن الإفصاح عما في النفوس، وقد تجلى هذا الأثر في مسار تكويننا معه بمجزوءة التدبير بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين تجليا واضحا، ولاسيما في تعامله مع تحليل النصوص الأدبية، إذ كان يرسخ فينا مقاربة تقوم على مجاوزة ظاهر النص إلى ما ينطوي عليه من دلالات أعمق، فكان ينتقل معنا في القراءة من مستوى الفهم المباشر إلى أفق التأويل المنهجي، ويتبدى هذا التوجه بوضوح في اشتغاله معنا على رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، حيث لم تعد القراءة مقتصرة على تتبع الأحداث أو توصيف الشخصيات، بل اتجهت إلى مساءلة الدوافع واستجلاء البنيات النفسية وربط الاختيارات الفردية بسياقاتها الاجتماعية والدلالية. ولم يكن هذا التحول في طريقة القراءة معزولا عن تجربتنا الصفية، بل وجد امتداده المباشر في وضعيات التعلم التي كنا نعيشها داخل الحصة، إذ لا يمكنني في هذا السياق إلا أن أستحضر ذلك الدرس التطبيقي الأول في المجزوءة حين أسندت إلى مجموعتنا قصيدة من إحياء النموذج، فولجنا قاعة الجمع ونحن نظن أننا أحطنا بالنص إحاطة الهالة بالقمر. فإذا بنا أمام موج من الأسئلة العميقة التي أعادت ترتيب يقيننا وأظهرت لنا أن ما كنا نعتقده امتلاءً لم يكن إلا بداية فراغ معرفي يدعونا إلى التأسيس.

وأذكر أن لحصة الثلاثاء، حصة مجزوءة التدبير، شأنا آخر عندنا، فكنا نعد لها العدة لا من باب الاجتهاد وحده بل من باب اتقاء المفاجأة. وقد كانت ملامح الجد ترتسم علينا منذ مساء الاثنين وتتحول أحاديثنا إلى ما يشبه خطة نجاة جماعية بل كنا نمارس شيئا من المناورة البيداغوجية، هذا يتوارى خلف ظهر من يجلس أمامه، وذاك يقلب صفحات الدفتر وكأنه في عمق اكتشاف علمي وآخر يتجنب الالتقاء بعين الأستاذ كأن بينهما تاريخا لا يروى. وإذا كان هذا يحيل على ملامح اشتغاله داخل الحصة فإن الوقوف عند تجربته لا يستقيم دون استحضار بعد آخر لا يقل دلالة وهو ما اتصل بتمثله للممارسة التربوية في بعدها الإنساني. ويُستدعى إلى الذهن أكثر من موقف سواء مع الزملاء الأفاضل أو أطر المركز على اختلاف مهامهم. أختم قولي بأن من دواعي الفخر أن يقول الإنسان إنه تتلمذ على يدكم أستاذي الكريم، فجزاك الله عنا خير الجزاء وأوفاه، وبارك فيك وفي علمك وعملك.

لرؤية عالم متمكن من هذا العلم، مطلع على أمهات المصادر فيه، فهو ودون أي تخطيط أو تحضير مسبق يستدل بفرويد وجاك لاكان وبغيرهما من أقطاب هذا العلم، ويشرح نظرياتهما ويحيل على كتبهما، ويطوع معرفتهما في تطوير آليات جديدة للقراءة الناقدة والمؤولة والمغنية للدرس النقدي، وهو كذلك -ولا أبالغ- المتبحر في التاريخ، إذ أحس بضرورة حضور الحس التاريخي لدى الناقد، فجعله ذلك ينكب علية انكباب الراغب في الإحاطة والاستقصاء، لا مجرد الاختيار والانتقاء، وهو كذلك صاحب الحس الفني، المحب للفنون، المتيم بالشعر، المتذوق للكلمة البديعة، المحب للسينما وللمسرح وللموسيقى، القارئ للتراث العرفاني الصوفي، أما في جانب المعرفة الديدكتيكية والبيداغوجية، فإن الأستاذ مبرز فيها بحق، دائم القراءة في هذا المجال، وشديد التتبع والاستقصاء لكل جديد ينشر فيه، وإن له ترجمات متقنة لمقالات وأبحاث بيداغوجية وديدكتيكية كثيرة، في القراءة المنهجية وفي التدريس بالمنظورات وفي الاستراتيجيات التدريسية الحديثة، غير أنه يختص بها طلبته ولم تجد إلى الآن سبيلها إلى النشر، ولا أدري سبب إحجام الأستاذ عن ذلك، إذ حق مثل تلك الترجمات أن تنشر ليستفيد منها جميع الطلبة والأساتذة والمهتمين بالحقل التربوي، ومن مميزاته في اشتغاله البيداغوجي خاصة في حقل القراءة الأدبية، سعيه المضني إلى أن يكسب طلبته طرائق القراءة الناقدة المبدعة، وكيفية اقتحام مسالك التأويل وفجاجه التي تحيي النص وتجعل الذات القارئة غائصة في فتنة المعاني والدلالات، فلطالما أكد على ضرورة تكوين «العين الثالثة» التي ترى في النص ما وراء الظاهر، وتقرأ ما خلف السطور، وتجعله نابضا بالمعاني الاجتماعية والتاريخية والنفسية والجمالية والفنية والعديد من المستويات الأخرى، كما كان يدربنا على لعبة الاحتمالات في قراءة النص الأدبي، مما يجعل من عملية القراءة تجربة متعة ومعرفة تلج عدة عوالم، وإننا لنحاول في ممارستنا الصفية تنزيل كل هذه التقنيات التي أخذناها عن فضيلة الأستاذ، وتجعل من عملية تدريس النص الأدبي عملية متعة للتلميذ وللأستاذ كذلك.

إن كل ما ذكرته في شخصية حسن المودن العالم ليس إلا غيضا من فيض وقلا من كثر، أردت بها التمثيل لا أكثر، وأحسبني قد غمطته الكثير والكثير من حقه، ولم أذكر أمورا كثيرة هي أهل لأن تذكر، فليعذرني الأستاذ، غير أن الإحاطة بالمشروع العلمي للأستاذ تحتاج بحق دراسات وأبحاث ورسائل ماستر ودكتوراه تلتفت إلى إرثه العلمي وتهتم ببيان وتجلية بصمته المعرفية البارزة في الشأن الفكري والنقدي والبيداغوجي.

حسن المودن الإنسان

البصمة الإنسانية للدكتور حسن المودن يشهد عليها الجميع، ونبله ورقيه وأخلاقه العالية صفات مرتبطة باسمه، ولكم كان يفتح لنا قلبه إبان تتلمذنا عليه بالمركز الجهوي، فنشعر منه بحب شديد يسري جوه في كل الفصل، فترى الجميع ينصت ويصغي ويتدبر في ما يلقيه الأستاذ، إذ ليس كلامه كلاما إنشائيا عاطفيا يستهدف دغدغة المشاعر، بل إنه معجون بطينته الإنسانية النبيلة، مغمور بحبه الشديد لطلبته، مليء بالغيرة عليهم، فتجده ناصحا وموجها، يحاول جاهدا الإمساك بتجربته الطويلة والغنية في دروب الحياة، وتقديمها لطلبته، حاثا لهم على اغتنام الفرص التي يراها جديرة بالاغتنام، محذرا لهم من الوقوع في أخطاء يؤلمه أن يرى طلبته واقعين فيها. إن الحس الإنساني للدكتور المودن لا يغيب عنه، فهو مطبوع عليه لا متكلف له، ولا أدل على نبله ورقته الإنسانية من ابتسامته الجميلة التي كانت تأسرنا وتغمرنا بالاطمئنان والارتياح، حتى أن أحد الطلبة سأله يوما عن سرها، وإني أعتبرها انعكاسا لسريرته وباطنه المليء بمشاعر التعاطف والإنسانية والإحساس بالآخرين والعطف عليهم، إنها ترجمة لروح لا تعرف إلا المحبة والعطاء والإخلاص، وليس للكراهية والحقد والسلبية مكان فيها.

حسن المودن في بيته

يقال إن الأستاذ لا يكون أستاذا بحق حتى يفتح لطالبه ثلاثة: قلبه وجيبه وبيته، وقد فعل الأستاذ حسن كل هذا، وكنت ممن شرف بدخول بيته والجلوس بين أهله وأبنائه، فوجدنا شخصية أخرى من الدكتور، شخصية شديدة الكرم، مرحبا بالضيوف ومستبشرا بهم، مسرورا باستقبالهم، كله تواضع وفرح، فكان يخدمنا بيده، ويحق له بكل صدق التمثل بقول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا　　نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ولم يشعرنا بتاتا بأننا طلبة لديه، بل عاملنا معاملة أهله وأحبابه، فجعل من هذا اليوم وتلك الليلة ذكرى جميلة ستظل حية بقلوبنا، وسنظل أوفياء لها ومتشرفين بها، ومعتزين بأن اختصصنا بها، ولوقعها علي وافتخاري بها أحببت أن أختم بها حديثي في هذا المقام الهيج.

كلمة أخيرة

في الأخير، ليست هذه الكلمات العجلى إلا جزءا يسيرا مما تكنه قلوبنا تجاه الأستاذ الكريم من عظيم محبة وكبير فخر وشدة اعتزاز بأن كنا يوما من تلامذته، وبأن سنظل دوما من محبيه وذاكريه بالخير والحسنى، وليست إلا جهد المقل، وإني قد سررت غاية السرور لما رأيت خبر الاحتفاء به، بأرض كلية اللغة العربية العتيدة منزلي الأول، فالأستاذ حسن المودن أهل لكل احتفاء وتكريم، ومن حقه علينا أن نفي له ببعض ما قدم من جهود، فشكرا لكل القائمين على هذا الاحتفاء الإنساني، وشكرا غاية الشكر أستاذي الكريم حسن المودن، شكرا لك على كل شيء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الوعي الإبستيمي بمنطلقات المصطلحات

في كتاب «بلاغة الخطاب الاقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب» للدكتور حسن المودن

د. عبد العزيز لحويدق

إن أول ما يسترعي الانتباه حين الشروع في قراءة كتاب «بلاغة الخطاب الاقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب»، للناقد الدكتور حسن المودن، هو المفاهيم المؤثثة للعنوان، وهذا إشارة إلى ضرورة تحديدها حتى تستقيم القراءة وتنهج السبيل السالك لتتبع كيفية اشتغالها في بناء المقدمات وتوليد النتائج.

ذلك أن المصطلحات وما يحف بها من شبكة إجرائية هي ما يجعل أي دراسة قمينة بالارتقاء إلى مستوى العلمية، إذ تُحوّل الجزئي والعرضي إلى عنصر دال ضمن بناء نظري يُفترض فيه حيازة سمة الاتساق والانسجام وتجنب التناقض والتلفيق بل الإسقاط. ذلك أن قراءة واعية بمنطلقاتها الابستيمية تنتقل بنوع من التدرج والتسلسل من الوصف والتحليل إلى النمدجة ثم المساءلة التقويمية. فما المقصود أولا بالنسق؟

هل النسق يعني: « جمع الأفكار من منطلقات مختلفة وتنسيقها مع بعضها البعض» ؟

هل النسق هو التركيز على الثابت وإغفال المتغير والهامشي؟

أليس التراث البلاغي ملتقى روافد متعددة، وتيارات كلامية متنوعة، وحقول معرفية أصيلة ودخيلة؟

هل نحن إزاء نسق مغلق؟ ألا يمكن تصور نسق مفتوح ؟ لأن المجالات الحيوية دينامية وهي الأكثر حضورا في الواقع ، أما الأنساق المغلقة فلا وجود لها في الحياة والفعل الإنساني؛ فالفعل البشري غير ممكن إلا بوصفه نسقا، نسقا مفتوحا على كل الاحتمالات.

ونظامه في إطار منطق الحركة والتفاعل يخضع لجدلية التوازن واختلاله، إذ ضمن بنية النسق تتبدى مسارات موازية وهامشية لاعتبارات إيديولوجية وميتافيزيقية ولا يعاد إليها الاعتبار إلا ضمن مقاربات جديدة تلتفت إلى جزئيات وأفكار وآراء قابعة في الخلف ومتوارية إلى الظل . إلا أنها تظهر فجأة وتزحزح الأنساق المغلقة، وذلك أنها تسوق معلومات مربكة ومشوشة « لها القدرة على إحداث تغيير في بنى النسق، أي على اصطفاء بنى جديدة واختبار قدرة هذه البنى على الثبات.»

ومن المعلوم أن النسق: لغة هو « ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء»{.....}

كما يدل على التنظيم، أي على كل ما جاء مستويا على نظام واحد، أما النسق اصطلاحا فروافده متعددة ، إذ في الفلسفة يقصد به بصفة عامة « جملة عناصر مادية أو غير مادية تتعلق بالتبادل بعضها البعض، بحيث تشكل كلاً عضويا ،(النظام المدرسي) (الجهاز العصبي) وبصفة خاصة يقصد به «مجموعة أفكار علمية أو فلسفية متراصة منطقيا، لكن من حيث النظر إلى تماسكها بدلا من النظر إلى حقيقتها»، أي أنه «مجموعة من العناصر المتداخلة تشكل كلاً موحدا». والظاهر، أن النسق هو جماع عناصر متلاحمة تلاحما عضويا ، وتتكامل فيما بينها بنية ووظيفة ، ولهذا كان مسعى المقاربات النسقية، هو اكتشاف النظام الضابط للأجزاء. ولهذا يرى دوسوسير أن اللغة نسق ونظام من العلامات ، وعمل رومان ياكوبسون على تحديد النموذج التواصلي ونسقه العام. واكتشف فلاديمير بروب نسق الخرافة العجيبة، ونحت غريماس Greimas النموذج العاملي، والمربع السيميائي . كما أن هناك النسق الثقافي الذي يتحكم في الرأسمال المادي والرمزي. ويؤدي إلى توجيه سلوك الأفراد وبرمجتها وفق ما سنّه من قوانين ومعايير صريحة ومضمرة، يكون قد استدخلها المرء دون وعي، وأضحت إجابات جاهزة عن أسئلة أفرزها السياق التاريخي والسياسي والفكري.

وقد تتعدد الأنساق، لأن النسق المفرد لا يستوعب مكونات حقل معرفي معين. ذلك أن نشأة البلاغة على سبيل المثال وتطورها لم يقتصر على بيئة واحدة؛ إذ أسهمت في بلورتها مجالات متعددة، اصطبغت بصبغتها، ولونتها بألوانها، ودمغتها بخصوصيتها ، وجعلتها أنساقا متعددة تتسم بالدينامية بفعل تفاعل عوامل داخلية وخارجية، و من جراء اجتراح أسئلة مهيمنة في سياق تاريخي محدد. فالنسق إذن، هو جدل بين الثابت والمتحول وحوار بين المركز والهامش، وإيمان بقيم الاختلاف وتعدد الأنساق وديناميتها. لأن هذا الفهم هو الذي يضفي على قراءة تراثنا البلاغي الانسجام والاتساق المطلوبين. ويقيهما من تهمة الانتقائية والإسقاط.

وبناء على ما سلف يمكن إيراد استشهادات من كتاب « بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب » تفيد في فهم المقصود بالتصور النسقي، عند الدكتور حسن المودن.

يقول: «ونفترض أن في تراثنا البلاغي غير قليل من الأعمال البلاغية التي كانت منشغلة بهذه المنطقة البينية المعقدة التي يتقاطع فيها التداولي والشعري وفيها غير قليل من المحاولات لبناء مفهوم نسقي للبلاغة، ولا يمكننا في الوقت الراهن الذي يعرف عودة البلاغة، إلا أن نعيد قراءة التراث البلاغي الإنساني، والتراث البلاغي العربي جزء منه بالطبع ، وإن لم يحظ بعد، في افتراضنا بالاهتمام الذي يسمح بإعادة بناء تصوره النسقي المركب للخطاب وإعادة بناء ملاحظاتهم حول الإشكالات التي يخلقها التعالق بين الشعري والتداولي داخل الخطاب الواحد».

ما يفهم من هذا النص أن إعادة قراءة التراث البلاغي الإنساني والعربي قراءة نسقية يقصد بها الابتعاد عن التجزيئي والاختزال والانتقال من الجملة إلى الخطاب، واستحضار عناصره وأطرافه الضرورية: المتكلم، النص، المخاطب، المقام».

الانتباه إلى طبيعة الخطاب الكتابية والشفوية والسمات التلفظية والمشيرات المقامية المدمجة في إنتاج القول. وقد أدى هذا التصور النسقي إلى وضع تصميم للبحث يشمل في الباب الأول: كفايات المتكلم، وفي الباب الثاني فعالية النص. وفي الباب الثالث دور المخاطب في إنتاج الخطاب الإقناعي.

مما يعني أن البلاغة من منظور نسقي تتحقق في وضعية تواصلية تتكون من عناصر معيارية لا تخلو منها أي خطاطة حوارية ، إذ لابد من متكلم ونص ومخاطب وسياق، وكل ذلك رهين بالوعي بالعلاقة الجدلية بين الشعري والتداولي أو بعبارة محمد العمري بين التخييل والتداول.

ويفهم أيضا من بناء الكتاب أن المقاربة النسقية مقاربة يتعاضد في بوثقتها الإيتوس واللغوس والباتوس كتجل خطابي بالأساس.

ومع ذلك يبقى السؤال الأهم ؛ هل النسق يكمن في تعاضد التخييلي والتداولي؟ أو هل النسق هو النظر إلى البلاغة من جهة العلاقة الجدلية بين الإيتوس واللغوس والباتوس ؟ ألا يبدو أن البلاغة العربية هي نتاج النسق البياني الديني؟ وأنّ ما يبدو نسقا من خلال مفاهيم جامعة عامة كالتوسع عند سيبويه والمجاز عند أبي عبيدة والمعاني عند الفراء والبيان عند الجاحظ والنظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلوم الأدب عند السكاكي والتناسب عند ابن البناء المراكشي والبديع عند السلجماسي بمعناه العام

في إطار العقلانية الموسعة أو المنطق البلاغي أو المنهاج عند حازم القرطجاني وذلك في ضوء المحاكاة والتخييل ؛أنها مجرد أنساق فرعية لا تعدو أن تكون خادمة للنسق الأعلى الذي هو نسق بياني ديني.

ومن هنا نلحظ أن أي خروج عن هذا النسق الأعلى إلا وتتم محاربته سواء في لحظة الإبداع أو في لحظة التجديد. إنه نسق يحرص على الثابث ويرفض كل متحول أي يرفض الانتقال من النسق الميتافيزيقي إلى النسق الإنساني الوجداني الانفعالي الذاتي إنه ترسيم لبلاغة الجماعة في مقابل بلاغة الفرد .

ويمكن قراءة الخطابية الغربية في ضوء هذا الصراع بين الميتافيزيقي والإنساني، بين المطلق والنسبي، بين الاحتمال والبداهة، أي أن البلاغة الغربية مع السوفسطائية قامت أسسها على قولة بوتاغوراس: «الإنسان مقياس كل شيء» فليس هناك حقيقة مطلقة متعالية إذ كل فرد يمتلك حقيقته الذاتية ويمكنه أن يحاجج عن الشيء ونقيضه في الوقت نفسه لأن الشرط الإنساني شرط قابل للتناقض وللتحول والصراع بين الرؤى المتباينة. ولعل هذا هو ما دفع أفلاطون في محاورة جورجياس إلى نقد البلاغة واتهامها بالديماغوجية والمناورة ومن تم حاول أفلاطون استعادة البلاغة إلى عالم المثل والميتافيزيقا. فالقول بالنسبة له هو القول الذي ينشد الحقيقة كماهي في عالم المثل أما الخطابية السوفسطائية فمفسدة للمواطن ببعدها عن الفضيلة والحقيقة المطلقة المتعالية.

لكن الملاحظ أن أرسطو أعاد الخطابية إلى الفعل الاجتماعي في إطار الخطابة القضائية والاستشارية والاحتفالية ضمن ثلاثية الإيتوس واللغوس والباتوس وضمن الخماسية الناظمة للقول: البحث، التنظيم، الأسلوب، الذاكرة، الإلقاء. وذلك في أفق تحقيق الوظيفة الإقناعية.

ومن المعلوم أن الخطابية عرفت اختزالا وانحطاطا نتيجة عوامل متعددة منها :

-البداهة الديكارتية.
-اليقين الديني.
-المنعطف الرومانسي وانتصار الذات على المعيار، ولعل قولة فيكتور هيجو الشهيرة دالة على ذلك ؛»حربا على البلاغة سلاما على النحو».
-التجريبية العلمية سليلة الوضعية الفلسفية.

والظاهر أن عودة البلاغة في منتصف القرن العشرين إلى أوجها كانت مع بيرلمان و تيتكاه ،وذلك ضمن عقلانية موسعة ومنطق القيم الذي يشتغل على الاحتمال الذي لا يستوعبه المنطق الصوري ومن ثم يرى بيرلمان أن الخطابية تتخلل الحوار الذاتي والحوار مع الآخر وتتخلل الخطاب الفلسفي والخطاب العلمي وتتوجه إلى مستمع خاص يهتم بالنتيجة كما يتوجه إلى مخاطب كوني يهتم بالحقيقة في بعدها العقلي وبهذا أخرج الخطابية من مأزق الابتعاد عن الحقيقة انطلاقا من التفريق بين المستمع الخاص والمستمع الكوني وبين الإقناع والاقتناع.

باختصار فإن النسق البلاغي العربي نسق بياني ديني وما شهده من تحول كان نتيجة الانعطاف نحو الشرط الإنساني أما البلاغة الغربية فنسقها خضع لجدلية تتراوح ما بين المقدس والدنيوي وذلك ضمن بنيات تاريخية وثقافية وسياسية تختلف حسب طبيعة المجتمع الحاضن لها والذي قد يتسم بالانغلاق أو يتسم بالانفتاح كما هو الحال في المجتمعات الديمقراطية .

حسن المودن ليس مجرد ناقد بل جرّاح بمشرط من نور

بقلم : محمد شمس الدين

قال تعالى { يَرْفَعِ اللّه الذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَالذِينَ اُوتُواْ العِلْمَ دَرَجَاتٍ }
ويقول رسوله الكريم :
« من سلك طريقا يَلتمسُ فيه علما سهّل اللّه له به طريقا إلى الجنة»
يقول صاحبُ التّائيةِ المَشهورَةِ أبو إسحاق الإلبيري رحمة اللّه عليه :

لئن رفعَ الغَنيُّ لـــواءَ مـال — لأنتَ لـوَاءَ علْمكَ قد رفـعـتَـا
وإنْ جلس الغَنّي على الحشايا — لأنـتَ على الكواكب قـدْ جلسِتا
وإن رَكِبَ الجيـادَ مُسَوَّمـاتٍ — لأنتَ منـاهِـجَ التقَـوى ركِبتـا

ولا يسعني قولا ووصفا وذكرا أقوله في هذه الوجوه النيرة إلا كما قال شاعر رسولنا الكريم حسان بن ثابت رضي اللّه عنه:

بيضُ الوُجوهِ كريمةٌ أحسابهم — شُمُّ الأنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوَّل

وبعد:
فقد اجتمعنا اليوم في ضيافة أستاذنا الغالي حسن المودن ابن مدينة الرياح والنوارس احتفاء به نجلا كريما لها وابنا بارا أينما حل وارتحل يترك بصمته والكثير من علمه...

لَا يَخْفَى عَلَى أَحَد أن الأستاذ الكريم وُلِدَ بَيْنَ دَفَّتَيْ كتَاب، وَنَشَأَ في حضن الكلِمَاتِ، دَرَسَ اللُّغَةَ لَا ليَحْفَظَ قوَاعِدَهَا فَقط، بَلْ ليَفُكَّ شَفرَاتِ المَعَانَي، وَيُصْغيَ إلَى نَبْضَ النُّصُوصِ الخَفيِّ، فَكَانَ مُحَلِّلاً نَفْسِيًّا بَارعًا، وَمُشَخِّصًا رَائِعًا، يُعِيدُ عَجْنَ النُّصُوصِ وَالرِّوَايَاتِ وَيُشَكِّلُهَا كَمَا يُرِيدُ.

يُمكن وصف عبقرية الدكتور حسن المودن بأنها «جسرٌ إبداعي» فريد بين ضفتين؛ ضفة الأدب بجمالياته، وضفة التحليل النفسي بأغواره. وتتجلى هذه العبقرية في النقاط التالية:

- رهبانية في محراب النص: الدكتور المودن حسن لا يتعامل مع النصوص كـأوراق صماء، بل ككائنات حية لها «وعي» يهمس بأسراره. عبقريته تكمن في قدرته المذهلة على استنطاق الصمت في الرواية، وتحويل التفاصيل العابرة إلى مفاتيح لفهم النفس البشرية.

-تجديد الدماء في النقد العربي: لقد استطاع بذكاء فذ أن يخرج بالنقد النفسي من سجن «عقدة أوديب» التقليدية إلى رحابة «الجماليات النفسية»، هذا ما جعل دراساته تتسم بالعمق الفلسفي والرشاقة الأدبية في آن واحد.

-المترجم المبدع: لم يكن مجرد ناقل للغة، بل كان ناقلاً للمعرفة. عبقريته في الترجمة جعلت المفاهيم الغربية المعقدة تبدو وكأنها ولدت في لغتنا العربية، طيعة وسلسة.

-البساطة العميقة: يمتلك قدرة «السهل الممتنع»؛ حيث يقود القارئ في دروب معقدة من التحليل النفسي دون أن يشعره بالغربة أو التشتت، وهذا هو جوهر الذكاء الأكاديمي الرفيع.

باختصار، حسن المودن ليس مجرد ناقد، بل هو «جراح نصوص» يمتلك مشرطاً من نور، يغوص به في أعماق السرد ليكشف لنا عما لم تقله الكلمات وهذا فعلا ما كان يفعله معنا في أيام خلت. أيام الزمن الجميل رفقة هذا الرجل العظيم.

ففي تدارسنا لرواية «اللص والكلاب» كنا نظن أننا أمام رواية تتضمن فشل رجل في الانتقام إلا أن دوائر التحليل النفسي وضعتنا أمام أمر الواقع، فتبين من خلال استنطاق الأستاذ أن سعيد مهران الحقيقي هم طلابه.

الدكتور حسن المودن يرى أن الحقيقة لا تمنح بل تستنتج وربما لا وجود لها والوجود لا يمكن أن تراه في رمشة عين، والعين لا تلمح كل شيء دفعة واحدة، ودهشة الوجود لا تختفي إذا لمحناه مرة أخرى.

حتى القِرَاءَةُ نَفْسُهَا لَا يأتي عليها البلى إِذَا تَكَرَّرَتْ، بَلْ تُوَضِّحُ الصُّورَةَ... فمن المنظورات تعَلمنا كيف نقرأ حيث علمنا :

أنَّ القراءةَ الأولى عاديَّةٌ ،
والثانية مُتعِة ،
أمّا الثالِثة فرحِلةُ استكشاف ،
والرابعة حقيَقة مُشوَّهة ،

والخامسةُ تجعلك بطلًا لما تقرأ.
كل هذا مرد الفضل فيه لدكتورنا المحتفى به...

حسن المودن كان ممن صان العلم فصانه، وأعلى ذكره وأبانه

فَجَعلَ مِنْ مَادَّة تَدْبِيرِ التَّعلُّمَاتِ مِحْرَابًا يَتَهَيَّبُ الجَمِيعُ حِمَاه. لَمْ يَكُنْ يُلْقِي دَرْسًا، بَلْ كَانَ يَبْني شَخْصيَّةً.

مُمَارسًا عَلَيْنَا نظامًا تَرْبَويًّا يُشْبهُ تَقَلُّبَ الفُصُولِ بوَعْي وَحكْمَة؛ فَتَارَةً يَشْتَدُّ بصَرامَته حَتَّى يَرْتَعدَ المُقصِّرُ مِنْ هَيْبَته، وَتَارَةً يَفيض رقَّةً وَلينًا حَتَّى يَسْتَكينَ الحَائرُ إلَى نُصْحه.

كَانَ يُؤْمنُ أَنَّ الأَسْتَاذ لَا يَنْضجُ إلَّا إذا ذَاقَ مُرَّ الشِّدَّة وَحُلْوَ الرَّأْفَة، لذَا كَانَ غَضَبُهُ مَدْرَسَة، وَقَسْوَتُهُ تَقْوِيم، وَلِينُهُ احْتوَاء.

لَمْ يَتْرُكْنَا أَسْرَى لِلْكُتُب، بَلْ جَعَلَ مِنْ نَفْسه نَمُوذَجًا حَيًّا لوَقَارِ المهْنَة، فَخَرَجَ مِنْ تَحْت يَده رجَالٌ وَنسَاءٌ يَحْملُونَ قَبَسًا مِنْ نُوره، وَيَقْتَدُونَ به في فُصُولهمْ بنَهْجه وَمَسْعَاهُ.

وَهَا هُوَ يَمْضي الأُسْتَاذُ، وَيُسْمعُنَا خُطَاهُ، تَاركًا لَنَا صَدَاهُ، وَفي وجْدَان كُلِّ مَنْ تَخَرَّجَ عَلَى يَده ذكْرَاهُ. فَلَمْ تَكُنْ تلْكَ الشِّدَّةُ إلَّا صَقْلًا، وَلَا ذَاكَ اللِّينُ إلَّا وَصْلًا؛ حَتَّى غَدَا كُلُّ أُسْتَاذ منْ تَلَامذَته يَحْملُ في قَلْبه قَبَسًا منْ رُوحه، وَفي أَدَائه مَسْحَةً منْ سمته. لَقَدْ زَرَعَ فينَا العلْمَ عزَّةً لَا تُنَالُ إلَّا بصَوْنه، فَصرْنَا في مَدَارسنَا امْتدَادًا لهَيْبَته، وَشَاهدًا حَيًّا عَلَى نَبيل عَطَائه.

فَصدق فيك أستاذي العزيز قول الجرجاني «ولو أن أهل العلمِ صانوهُ صانهم».

من التفكير بالتحليل النفسي إلى التفكير فيه

د. عبد الحي طالبي

إضاءات حول مشروع حسن المودن

الجزء الأول

«تطبيق الأدب على التحليل النفسي هو الطريق المثمر الناجع، لأن التحليل النفسي كسول، سرعان ما يركن إلى مسلماته على أنها الحقيقة كلها!»

تروم هذه المقالة تقديم بعض الإضاءات حول مشروع حسن المودن. ولا بأس أن نوضح، ابتداء، أن هذا المشروع يتجاذبه اتجاهان محوريان؛ يتعلق الاتجاه الأول بالبلاغة وتحليل الخطاب ويتعلق الآخر بالتحليل النفسي. ولما كانت إضاءةٍ هذين الاتجاهين، وما بينهما من تقاطعات، متعذرة في هذا المقام، فإن حديثنا سيكون مقتصرا على ما يتعلق بالتحليل النفسي دون غيره. وقد اخترنا لهذه الإضاءات عنوانا هو: «من التفكير بالتحليل النفسي إلى التفكير فيه» تعبيرا عما نفترضه سمةً فارقة في القراءات النقدية التي ألَّفها.

تتميز مجمل الدراسات النفسية في هذا المشروع بحرصها الشديد على الجمع بين نمطين من القراءة: قراءةٌ تستثمر أدوات التحليل النفسي ومفهوماته في التحليل وأخرى تستشكل تلك الأدوات والمفهومات وتجعلها موضوعا للقراءة، وحينها يصير المقروء قارئا والمُفكَّر به مفكرا فيه.

أما القراءة الأولى فهي أظهر من أن تُبيَّن؛ بحكم النزوع التطبيقي الواضح الذي تعكسه المؤلفات العديدة للأستاذ المودن؛ ابتداء من «لاوعي النص في روايات الطيب صالح، قراءة من منظور التحليل النفسي» (سنة2000)، والكتابة والتحول (2002) مغامرات الكتابة في القصة القصيرة (2013)، و«قراءة نفسانية في قصة النبي يوسف، عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب» (2014)، الرواية العربية: من الرواية العائلية إلى محكي الانتساب العائلي (2017)، القصة القصيرة والتحليل النفسي (2018)، وليس انتهاء بـ«الرواية وشعرية اليتم» (2022).

وأما القراءة الثانية، فإنها تحتاج إلى فضل بيان؛ لأننا نفترض أنها هي رهان الكاتب الأكبر، وهي الأفق الذي ينشده ويلح على استشرافه، بتلك الدراسات التطبيقية، وبتلك الترجمات المنتقاة بعناية الحريص على الإبداع والتجديد والتوطين لهذه المعرفةَ النفسيةَ الآخذة في الانتشار منذ الربع الأخير من القرن العشرين: كترجمته لكتاب جان بيلمان نويل: التحليل النفسي والأدب (ط1/1997، ط2/2017)، وكتاب بيير بيار: الرواية البوليسية والتحليل النفسي (2015)... وهو نفس الإلحاح الذي نجده في دراساته الأخيرة وعلى رأسها كتاب: الأدب والتحليل النفسي (2019)، وفي محاضراته على غرار محاضرة: «التحليل النفسي يلفق التهم للأبرياء..»ii (2022)). ومحاضرة: «المحكي الإبراهيمي، نحو قراءة نفسانية جديدة» (بجامعة شعيب الدكالي، 2022/5/20)، ومقالاته على غرار مقالة: «المحلل النفسي رونيه كاييس: لماذا لا ينبغي تفسير مسألة الأخوة بعُقدة أوديب؟» (2021) iii).

تدل مجمل دراسات هذا «القارئ المحلل»، المتوَّجة بكتابه الهام: الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي (2024)، على توجه صريح نحو التفكير في التحليل النفسي، وتعكس طموحًا واضحا إلى تطويره وتجديده وتجاوز الكثير من مفهوماته، وعلى رأسها: عقدة أوديب. وبالنظر إلى أهمية هذا التوجه فقد حاولنا استكشاف أهم ملامحه واستشراف بعض آفاقه آملين أن نسهم من خلال ذلك في التعريف ببعض جوانب أهمية هذا المشروع النقدي المتجدد.

1 - ما معنى أن تفكر في التحليل النفسي؟

إذا كانت محاولات تجديد التحليل النفسي واضحة ومطردة في السياق الغربي، على غرار ما نجد في كتابات يونغ وأدلر ولاكان وميلاني كلاين وإريك فروم وبيلمان نويل ورونيه كاييس ولوري لوفير وبيير بيار... فإن السياق العربي ظل، فيما يبدو، ممعنا في التقليد والترديد، إلا ما كان من اجتهادات قليلة نذكر منها أعمال مصطفى صفوان وعبد الكبير الخطيبي وفتحي بن سلامة ورجاء بن سلامة ويوسف الصديق... ومن هذا القليل الباحث والمترجم حسن المودن؛ فقد راكم من الدراسات ما يجعله، بحق، من رواد التجديد في النقد النفسي العربي؛ بمواكبته الحثيثة لما يجري في حقل التحليل النفسي، وبانخراطه القوي في مساءلة السائد من المفاهيم والنظريات النفسية: تفكيرا فيها وتجاوزا لها. وفيما يلي بعض الإضاءات والإيضاحات حول «معنى التفكير في التحليل النفسي» في هذا المشروع.

أ?. التحليل النفسي ورش مفتوح

لا بأس أن نوضح، أولا، أن قراءات المودن للتحليل النفسي تجدُ مشروعيتها وقوتها من مصادر متعددة؛ فهناك من جهة أولى هذه الحاجة الملحة والمستعجلة إلى «نقد تدخلي»iv يحرك المياه الراكدة في النقد النفسي الحديث والعربي منه على الخصوص، بعد حوالي قرن من التراكمات التي لا تخلو من «انسداد» وتنميط، وإسقاط وتزييف في بعض الأحيان، وهناك من جهة ثانية هذا الإبداع المتواصل والتجديد المطرد الذي تطالعنا به الدراسات الغربية الحديثة في علم النفس واللسانيات والأنثروبولوجيا والفلسفة... والتي تعد بمراجعات كثيرة للتحليل النفسي. وهناك، من جهة ثالثة، تلك الحاجة المتجددة لاستكشاف مجاهل النفس الإنسانية وتقويم ما قيل ويقال عنها، وهناك قبل هذا وذاك هذه النصوص والمحكيات النابضة بالحياة والواعدة بتأويلات ومنظورات «أكثر تفسيرا» (وربما أكثر إحراجا!) مقارنة مع السائد والمكرَّس في التحليل النفسي بصيغته التقليدية؛ سواء تعلق الأمر بالنصوص الأدبية التأسيسية التي ولَّدت التحليل النفسي (تراجيديات سوفوكل، مسرحيات شكسبير، روايات دوستويفسكي...)، أو بالنصوص الأخرى المنسية أو الجديدة.

ولا بد أن نوضح، بهذا الصدد، أن التفكير النقدي في التحليل النفسي عند حسن المودن لا يعني الخروج الكلي منه، فالكاتب دائم التأكيد على أهمية ما تحقق فيه، ولكنه إذ يفعل ذلك، فإنه يحرص باستمرار على تذكيرنا بأن هذا التحليل «مشروع لم يكتمل بعد»، بمعنى أنه وإن كان قد استقر «علما إنسانيا»، فإنه يظل ورشا مفتوحا يجري إغناؤه وتطويره، باستمرار، على ضوء العلوم المجاورة له كاللسانيات والانثروبولوجيا... وعلى ضوء النتائج المحصَّلة من تفاعله مع النصوص. ومن هنا فإن التفكير في التحليل النفسي يعني بالأساس التفكيرَ في أفضل الصيغ الممكنة لجعله أقدر على تفسير ما يحدث في النفس الإنسانية الفردية والجماعية، ما يحدث في النصوص الأدبية والدينية والمحكيات الإنسانية... ولما كانت هناك طرائق حياة متجددة على الدوام، وهناك نصوص جديدة وأخرى قديمة يُعاد اكتشافها على الدوام، فمعنى ذلك أن هناك إمكانيات متجددة على الدوام لاستيلاد تنظيرات وتصورات نفسية جديدة، قريبة أو بعيدة مما أنتجه التحليل النفسي واستقر عليه...

إن التحليل النفسي وفق هذا المنظور ليس علما صارما ونهائيا وإنما هو، مثلما يؤكد جان بيلمان نويل في تصديره لكتاب «التحليل النفسي والأدب» قائلا: «إن التحليل النفسي فن يستند إلى نظرية، ويستند إلى ممارسة، بلا تقنيات إلزامية، وبلا شفرات شفافة، وبلا نماذج أصلية، وبلا تصورات أحادية، وبلا نقط استدلال ثابتة. فهو مثل بينيلوب، ينسج لوحته ويفككها، كما نصنع نحن بحياتنا»v.

هل تتعارض الدعوة إلى مراجعة التحليل النفسي وتجديده مع الاعتراف بأهمية ما أنجز فيه؟ قطعا، لا تعارض، فلا مشكلة إطلاقا في روح التحليل النفسي الباحثة في مجاهل النفس الإنسانية من خلال ما تقوله النصوص والمحكيات؛ المشكلة مع تلك التطبيقات الإسقاطية والكسولة التي أفقرت التحليل النفسي وعصفت بروحه. وعليه، فإن التجديد والمراجعة والتجاوز ما هو إلا استعادة لتلك الروح الأصلية الكامنة في التحليل النفسي وما هو إلا استئناف لسيرة المحللين الكبار بالبدء من حيث بدؤوا: الإنصات للنصوص والمحكيات، والتحرر الحثيث من تلك «الهذيانات المنسجمة» على حد عبارة بيير بيار.

ب. النصوص ملهمة والنظريات قاتلة!

تأسيسا على ما سبق، تدعونا دراسات المودن إلى استلهام تلك الروح العلمية المفعمة بالمرونة والحيوية، والتي وجهت كبار النقاد المشتغلين بالتحليل النفسي؛ أولئك الذين يقدرون النصوص حق قدرها، ولا يسمحون للنظريات، مهما بلغ اتساقها وإحكامها، أن تتحول إلى شرنقات قاتلة أو إلى أصنام مقدسة يُتقرب إليها بلي أعناق

النصوص وتقديمها قرابين على مذبح «العقد الجاهزة» والمكتملة... فلا تُقرأ إلا بها ولا تؤول إلا وفق ما تسمح به من إمكانيات؛ إذ كثيرا ما كان هذا المنزع يتجاهل النص والقارئ وينصرف عنهما تماما، باحثا في سيرة الكاتب وحياته الشخصية عما «يبرر» به الناقد النفسي هوسه بتصنيف «مرضاه» من المبدعين، فيتحول النص بهذا المعنى إلى مجرد شاهد ويصبح الموضوع هو الكاتب و»أعراضه الباتولوجية»، فتضيع إمكانات كثيرة للفهم وللاستثمار، وهذا خلاف ما فعله فرويد نفسه، القارئ النهم والمنصت الجيد للنصوص، وخلاف ما يفعله المجددون من أمثال لاكان وبارت وبورخيس وبيلمان نويل وبيير بيار... (وفي كتاب الأدب والتحليل النفسي توضيحات دقيقة بخصوص قيمة إسهامات هؤلاء النقاد)vi

في مشروع المودن تذكير مستمر بأنَّ في النصوصِ والمحكِيات مناطق خصبة لم تُكتشف بعد، وأنها خلاقة وولادةٌ ولا يليق بالتحليل النفسي إلا أن يحسن الإنصات إليها. لقد كانت هي المنطلق في تأسيس التحليل النفسي، ويُفترض أن تبقى هي المغذي الدائم له، وهي المحك الذي توضع عليه النظريات والمفاهيم وتُقاس به، بل وأن تُقرأ به وتُبنى على ضوئه. ف»الأدب، لا التحليل النفسي، هو المصدر الأساس للتنظيرات والتصورات النفسية»vii وليس هو مجرد حقل للتجريب والتطبيق الأحادي الاتجاه. بل إن هذا هو درس فرويد المحوري الذي «اختار مبكرا أن تكون (أرض الكتابة والتخييل) مسكنه الأبـدي»viii، فكان دائم الإعلاء من شأن الشعراء والروائيين واصفا إياهم بأنهم الخبراء والأساتذة في معرفة النفس البشرية.

هكذا يتبين أن التفكير في التحليل النفسي عند حسن المودن يعني أن نقرأ بعينين ونكتب بيدين؛ عين على النصوص والأخرى على التحليل النفسي، يد تخط ما يمليه هذا التحليل والأخرى تتعقبها بالتقويم والمحو، إن لزم الأمر. هل ذلك ممكن؟ نعم؛ بشرط التحرر من سلطة التأويلات الجاهزة ومن عنف النظريات المغلقة، وبشرط أن تُحفظ المسافة المناسبة للرؤية؛ فالعين البعيدة جدا عن موضوع رؤيتها لا ترى شيئا والعين الملاصقة لا ترى هي الأخرى شيئا. والعين المبصرة حقا هي تلك التي تحسن التموقع، فلا يسلبها بريق النظريات ولا يضللها التباس النصوص وغموضها. وذلك ما نزعم أن دراسات حسن المودن تحاول تحقيقه، مثلما سنوضح أدناه.

2 -التفكير في التحليل النفسي؛ مسارات وآفاق

يقترح علينا مشروع المودن مباشرةَ القراءة وإعادة القراءة ب»كامل وعينا» لما أنجز في التحليل النفسي وللنصوص التي تأسس عليها، ولما أنجز حولها من قراءات، ويدعونا أيضا إلى الانفتاح على نصوص ومتون جديدة، لا بغرض إضافتها إلى قائمة المواد التي اشتغل بها التحليل النفسي، أو بغرض بناء معان معينة حولها، بل بغرض استيلاد منظورات بديلة لإغناء هذا التحليل وتقويم بعض «انحرافاته» وتحيزاته ثم بغرض تطويره وتجديده.

في هـذا السياق، نستحضر تلك الـدراسـات القوية و»الجريئة» حول أوديب وهاملت وحول قصة يوسف وحول المحكي الإبراهيمي وحول كثير من النصوص الروائية العربية والغربية؛ حيث نكتشف مفاهيمَ ومداخل مغايرة للمألوف، على غرار مفهوم «عقدة الأخوة»ix؛ هذا المفهوم الذي «ظل مستبعدا أو ثانويا في الفكر النفساني»، رغم وجود تصورات مبكرة حوله عند فرويد وميلاني كلاين وجاك لاكانx.

أ- أوديب وهاملت... بريئان متهمان!

في محاضرة «التحليل النفسي يلفق التهم للأبرياء...» يستثمر المودن دراسات بيير بيار وبخاصة مفهوم النقد التدخلي، أملا في تصحيح الصورة النمطية المشكلة حول هاملت وأوديب، والتي شيدها فرويد وكرسها من جاء بعده من المحللين. ولما كان «النقد التدخلي» مساءلة للتأويلات والتفسيرات المتداولة، فإنه يبقى وفيا لطرح الأسئلة، وخاصة تلك الأسئلة المهملة أو المقموعة، والتي تستدرجنا ـ ببراعة الحكاء وبحنكة المُحقق ـ نحو إعادة تشكيل الحكاية من جديد، بعدما تكون قد زرعت من الشكوك واكتشفت من الثغرات ما يكفي لزعزعة الثقة في التأويلات السائدة. وحينها لا يكون هناك مناص من القبول بتأويل جديد وبالنتيجة بمنهج جديد وبرؤية جديدة وربما بمفاهيم جديدة وحكاية مختلفة! هل هو ضرب من التحايل على سلطة وهيمنة النقد السائد أملا في تفكيك بنيانه الراسخة أم على العكس من ذلك هو الخطة الأكثر إلحاحا وضرورة لتجديد التحليل النفسي وإغنائه وتقويته؟ لنتأمل ما يمكن أن يصنعه هذا النقد التدخلي بخصوص محكيات مألوفة جدا وتأويلات «طاغية جدا»:

1 -بالنسبة لأوديب: يتجه القارئ المحلل حسن المودن، في محاضرة: «التحليل النفسي يلفق التهم...» إلى مراجعة الحكاية في تشكلاتها الأولى وفي صيغها المتعددة، مقترحا زوايا نظر جديدة ومثيرا أسئلة مقموعة أو مهملة من قبيل: «ماذا وقع لوالد أوديب (لايوس) قبل أن يتزوج (جوكاست) وقبل أن ينجب وقبل أن يصبح أبا لأوديب؟»، ماذا وقع لأوديب في صغره حتى صار يشكو من عيب في جسده؟ وهل كان قادرا لوحده، وبعلته الجسدية، على هزم ملكٍ وحرسه؟ من هو القاتل الحقيقي للايوس؟ من هو المجرم أو المجرمة؟ ولماذا بقيت اللعنة مستمرة بعد مقتل أوديب؟ ولماذا سيرفع الوباء بعد موت جوكاست بالضبط؟... ما الجريمة التي استنكرتها الآلهة؟ هل الجريمة هنا هي قتل الابن لأبيه أم هي على العكس من ذلك جريمة قتل الأب للابن؟ ما العقدة الحقيقية التي ينبغي أن تحُل محل عقدة أوديب؟» xi.

2 -وفي مسرحية هاملت، تتناسل الأسئلة على النحو التالي: ماهي الجريمة الحقيقية الأولى التي تصدرت الأحداث؟ أليس هي قتل كلاوديوس لأخيه الملك هاملت، والاستيلاء على زوجته وعرشه؟ أليست الجريمة هنا هي قتل الأخ لأخيه وليس قتل الابن لأبيه؟ هل يكفي أن نقول كما قال فرويد بأن القتل كان موضوع رغبة هاملت الابن اللاواعية حتى نُحمله وزر الخطيئة؟ أو أن نقول كما قال لاكان إن «دال القوة» هو موضوع الرغبة عند هاملت، وأن المانع من تنفيذها على كلاوديوس هو فكره المتردد والمحتقر في الآن نفسه لكلاوديوس... هل تكفي عقدة أوديب لتفسير ما جرى؟ ألا يتعلق الأمر هنا بعقدة أخرى «صريحة» هي عقدة الأخوة؟

بالعودة إلى مقالة: «مسرحية هاملت: أَهوَ قَتلُ الأب أمْ قَتلُ الأخ؟ نَحوَ قراءة نفسانية جديدة.»xii نجد تدقيقات و»تحقيقات» تعيد بناء الحكاية من جديد، تستدرك ما فاتَ الدراسات والتحقيقات السائدة كدراسات فرويد ولاكان، فتتجه إلى إظهار تلك «الحقيقة» المنسية والمطموسة تحت ثقل التأويلات «الأوديبية»، وهي : أن المشكلة الأساس هي قتل الأخ لأخيه (كلاوديوس لأخيه هاملت)؛ الإنسان يقتل أخاه الإنسان وهذا القتيل يعود للانتقام بطرق جديدة؛ شبحا، ابنا، حفيدا... فلا القاتل الأول ينعم بموضوع رغبته ولا القاتل الثاني/ المنتقم يشفي غليله وينتزع ما سلب منه ولا طرفَ قادر على تصحيح المعادلة أو حسم الصراع؛ إذ للقتيل الثاني ورثة وذرية جاهزون دائما للثأر... وهكذا تستمر التراجيديا الإنسانية صراعا مستعرا بين الإخوة... الجميع في الجحيم؛ الكل حريص على الفتك بالكل.. إلا ما كان من استثناءات قليلة جسدها أولئك «الإخوة السعداء».

هوامش:

i- حسن المودن، الأدب والتحليل النفسي، وزارة الثقافة والرياضة ـ قطر، كتاب الدوحة رقم 99، غشت 2019، ص96.

ii -حسن المودن، التحليل النفسيُّ يُلفق التُّهَمَ للأبرياء: أوديب لم يَقتلْ أباه، وهاملتُ بريءٌ من دَمِ أبيه، (قناة حسن المودن على الويب)، نشر واقتبس يوم: يوم الاثنين 18 أبريل 2022 https://www.youtube.com/watch?v=Xy346NGkNQE&t=1963s&ab_channel=HassanELMOUDEN ، وقد نشر الباحث بعض مضامينها (ما يتعلق بأوديب خصوصا)، مع كثير من التوسع والتدقيق في مجلة الفيصل السعودية تحت العنوان التالي: «أوديب، هل هو قاتل أبيه فعلا؟ من عقدة أوديب إلى عقدة جوكاست»، يوم 1 نوفمبر 2022: http://www.alfaisalmag.com/?p=27689&fbclid=IwAR00uKtJVoiZbKbHu2Bik3fZNg-HmRVKgkOmx20NUSIzDhudGSYifjOPuRk

iii حسن المودن،٨ «المحلل النفسي رونيه كاييس: لماذا لا ينبغي تفسير مسألة الأخوة بعُقدة أوديب؟»، مجلة الفيصل (على الويب)، نشر يوم1 سبتمر 2021، https://www.alfaisalmag.com/?p=21858

iv -يحدد المودن وظيفة النقد التدخلي، في محاضرة أوديب لم يقتل أباه، قائلا: «هو نقد لا يسعى إلى بناء معنى عن نص ما، بل إنه يتدخل من أجل تصحيح صورة أو معلومة أو حقيقة».

v -جان بيلمان نويل، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، دار كنوز، عمان، الأردن، 2017. ص19.

vi -سبق أن كثفنا أهم مضامين هذا الكتاب الهام في مقالة لنا بعنوان: «قراءة في كتاب الأدب والتحليل النفسي لحسن المودن، ما معنى أن تكون ناقدا نفسيا اليوم؟» مجلة نقد وتنوير، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية - الكويت، ع12/ يونيو 2022، ص ص: 326-334. (https://tanwair.com/archives/15186)

vii حسن المودن، الأدب والتحليل النفسي، ص10.

viii -نفسه، ص135.

ix -يعرف حسن المودن عقدة الأخوة كما يلي: «إن عقدة الأخوةٍ هي مجموع منظم من التمثلات اللاواعية التي تتشكل انطلاقًا من علاقات تتأسس بين الأفراد والذوات، وفي داخل هذه العلاقات يحتل الفرد الواحد مكان الذات الراغبة؛ أي إن عقدة الأخوة هي تنظيم جوهري للرغبات العاطفية والنرجسية في علاقة بهذا الآخر التي تعترف الذات بأنه أخ أو أخت، وهو تنظيم ينتمي إلى بنية العلاقات التي تجري بين الذوات، ويحكمها التمثل اللاواعي للمواقع التي تحتلها الذات والأخ والأخت بالنظر إلى موضوع الرغبة الذي يتحدد في الأب، كما لاحظنا في القصص الديني. ينظر: حسن المودن، «قراءة نفسانية في قصة يوسف، عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب»، مجلة تبين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ع3/10، خريف 2014، ص45-46

x -حسن المودن، «المحلل النفسي روني كاييس...»: https://www.alfaisalmag.com/?p=21858

xi -حسن المودن، «التحليل النفسي يلفق التهم للأبرياء...»: https://www.youtube.com/

د. رضوان كعية
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين مراكش آسفي

حسن المودن

واحد من رجالات العلم وأعمدته الذين يعتزّ بهِم البحث الأكاديمي

بداية أشكر جميع القائمين على تنظيم هذا اللقاء العلمي، احتفاء بالأخ العزيز الأستاذ الدكتور حسن المودن، وفي مقدمتهم كلية اللغة العربية بمراكش ومختبر تكامل المناهج في تحليل الخطاب. والشكر موصول لكل المتدخلين وكذا الحاضرين.

في الحقيقة، لا يمكنني من خلال هذه الشهادة التي سأقولها في حق سيدي حسن أن أزحزحه عن مكانته، ولا أن أرفعه من مقامه، فهو الذي سما في الأعالي، لا تصعّدا في السماء، وإنما حيازة لكل الخصال الحميدة التي قلّما اجتمعت في غيره.

الأستاذ حسن المودن هو واحد من رجالات العلم وأعمدتِه الذين يعتزّ بهم البحث الأكاديمي. كتاباته غوْصٌ في أعماق الأدب، وتجديف فوق أمواِجه العالية، وصمودٌ أمام رياحه العاتية، وظفرٌ بدقائق أسراره وخباياه. عُدّته في ذلك ما استجدّ من مناهج نقدية حديثة، وحفرٌ في صخور المعرفة الصمّاء، دون توقف عن النبش والتنقيب إلا بعد الوصول إلى الماء الصافي الزلال:

«وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ». (البقرة: 47.)

الجدّة والأصالة والعمق والتميّز هي بَعض سمات أعمال الدكتور حسن المودن، فهي تجاوزٌ للقراءة المتدثرة بغطاء المعيارية العلمية التي تكتفي بما هو مصرّح به في المدونة الأدبية، وفي المقابل تسعى كتابات سي حسن إلى تقديم قراءة منتجة لمعرفة جديدة تجنّب القارئ من الوقوع في طمس كنه العمل الفنّي، أو العمل النقدي أيضا. إنها صنعة لا تخلو من مواصفات الإبداع، وهو ما يتجلى حين يرى ما لا يراه الآخرون. كتابةٌ تنصهر مع ذات قارئة من العيار الثقيل، مُدركةٍ خصوصية المادة المقروءة من جهة، ومتمثّلةٍ للمناهج النقدية بشكل عميق، وهو ما مكّنه من اختيار العينة المناسبة متنا للدراسة، وكذا الأدوات الملائمة للتحليل المفضي إلى تجنب الاجترار.

يقوم مشروع الأستاذ حسن المودن على عدم التسليم بخلفياته النظرية أو اختيار أدوات التحليل من مستودع المناهج الأجنبية الجاهزة، وإنّما بمساءلتها وتمثّلها تمثلا نقديّا، وعدِّها خطابا متحرّكا دلاليا، مع مراعاة خصوصيات المادّة المدروسة، وكذا مُساءلة المسكوت عنه قصد إنتاج معرفة تفتح النص على تأويلات ممكنة.

يعلّمنا الأستاذ حسن من خلال كتاباته أن الأدب مازال أرضا خصبة لم تُستنفد خيراتها، ولن تستنفد أبدا مادام يقوم على الخلق والإبداع، وهو ما يفتح الباب أمام النقد أيضا، ليستمرّ في الحياة، ويغتنيَ باغتناء الأدب. وهذا ما بيّنه كتابه: «من قال إن الناقد قد مات؟»، حيث «ينتهي إلى إبراز أشكال جديدة وواعدة من النقد الأدبي، مع التركيز على أن النقد الأدبي كتابة لها أدبيتها وشعريتها»، إنه ممارسة تسعى إلى «إنتاج معرفة حول الإنسان ولغته وأدبه، ولا يمكن لتلك المعرفة إلا أن تكون مهمّة، وخاصة إذا كانت جديدة ومتجدّدة». وهنا يثير الدكتور حسن المودن أسئلة وجيهة، تدعو القارئ إلى إعادة النظر في عدد من المسلمات التي كان يحملها معه، وهي أسئلة تعيد بعث الحياة في الخطاب النقدي، وتفتح أعين الدارسين على إمكانيات مختلفة تتيح لهم آفاقا رحبة للبحث الأكاديمي: «أليس النقد كتابة أدبية؟ أليس النقد كتابة مثلُه مثل موضوع درسه: الأدب؟ ما هي حجّة من يفصلون بين النقد والأدب؟ ألم يحن الوقت من أجل تجاوز جذري لهذا التعارض الساذج بين النقد والأدب؟ ألا يبدو هذا التعارض غير ذي معنى عندما نقترب من شعرية الخطاب النقدي» .

وينعكس هذا التصور في مختلف إنتاجات الدكتور حسن المودن، وهو ما نجده مثلاً في كتاب: «الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي مقاربة نفسية جديدة»، ففيه يطرح أن على الأدب أن يضيء التحليل النفسي وليس العكس كما هو سائد، لأن «الأدب هو الذي يتجدّد باستمرار، في إنتاجه كما في تلقيه، وهو الأقدر على تجديد التحليل النفسي وتطويره» .

لا أريد أن تتحول شهادتي إلى قراءة في أعمال الدكتور حسن المودن، وإن كنت خرجت عن موضوع الشهادة، فبسبب الثراء المعرفي والمنهجي الذي يجده القارئ في كتابات أستاذنا الجليل.

وفي الختام أقول بأن بلوغ النجاح العلمي والأكاديمي لا يتحقق ما لم يكن الباحث إنسانا بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ الأستاذ حسن المودن هو رمز لكل أشكال القيم الإنسانية النبيلة: رجل طيّب، متسامح، نصوح، متفائل، كريم، عادل، منصف، عفيف، حكيم، رزين... في الحقيقة لن أستطيع وصف مظاهر الإنسانية في هذا الرجل ولن أتمكّن من ردّ جميله عليّ ولو أنفقت ما في الأرض جميعا، ففضائله غمرتني شخصيا، وعمّت أقاربه وأصدقاءه وأصفياءه وطلبته.

أحييكم أخي وأستاذي الجليل سيدي حسن، وأعتذر عن أي تقصير في شهادتي المتواضعة في حقكم، فأنتم أهل لكل خير، ونموذج عال في الأخلاق النبيلة والعمل الجاَد. حفظكم اللّه من كل سوء، وأيّدكم بروح من عنده وزادكم بسطة في العلم والجسم. آمين.

والسلام عليكم ورحمة اللّه.